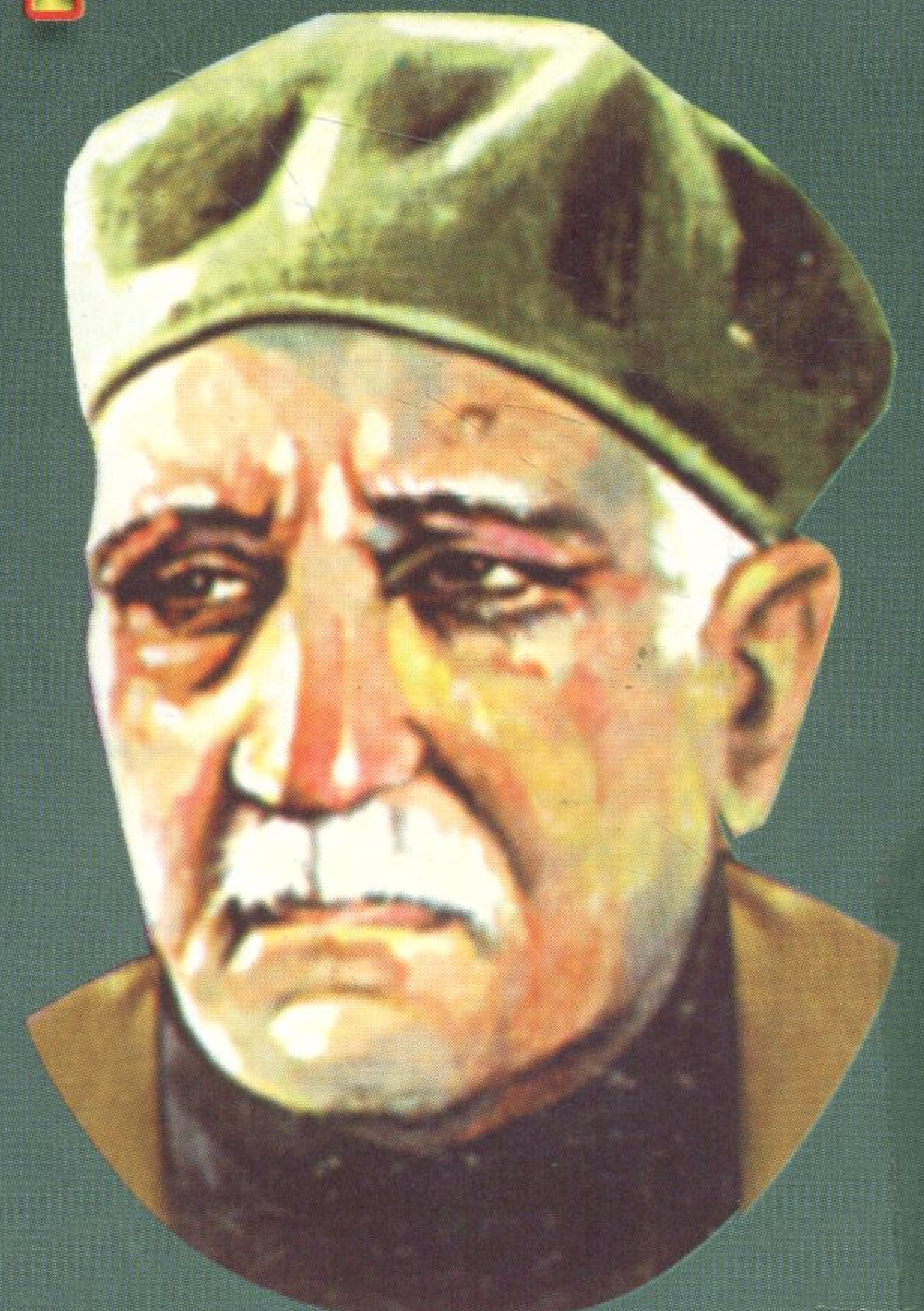


مايُقال عن الإسلام



للكاتب الكبير الأستاذ

عباس محمود العقاد

الجزء الأول

هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر المحرم ١٤٣٢ هـ



ما يقال عن الإسلام

للأستاذ الكاتب الكبير

عباس محمود العقاد

الجزء الأول

هدية مجلة الأزهر لشهر المحرم ١٤٣٢هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للعقاد ثروة فكرية ضخمة تزيد عن مائة كتاب من أشهرها العبقريات وله فى الدفاع عن الإسلام عشرات الكتب منها : عبقرية محمد ، وعبقرية الصديق ، وعبقرية عمر ، والإمام على ، الإسلام فى القرن العشرين ، والديمقراطية فى الإسلام ، المرأة فى القرآن ، والإنسان فى القرآن ، التفكير فريضة إسلامية . .

بالإضافة إلى مئات المقالات التى تزخر بها العديد من المجلات الأسبوعية والشهرية كمجلة الأزهر والرسالة والهلال .

ولقد تعقب العقاد كثيراً من أفكار المستشرقين وشبهاتهم، وإذا كان أسلوب العقاد يتصف بالتركيز الشديد ، فإننا ندعو القراء إلى قراءة هذه الكلمات قراءة متأنية ، لأن كلمات العقاد تحتاج إلى فكر يقظ ، وقد رأينا أن ننشر هذه المقالات نقلا عن مجلة الأزهر لصلتها بالواقع الحاضر مع أضوائها اللامعة التى تهدى إلى الطريق .

عادل خفاجة

عباس محمود العقاد في كتبه الإسلامية

مقدمة بقلم:

فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومى

- ١ -

يحار الكاتب حين يدرس إسلاميات العقاد ؛ لأن الكاتب الكبير متعدد الثقافة، متنوع المواهب، غزير الإنتاج فى اتجاهات كثيرة، تتصل من قريب أو بعيد بالحقل الإسلامى الذى أولاه أكبر اهتمامه، فأثمر فى روضه دوحا يانعا يؤتى أشهى الثمار، وينفرد بسمات خاصة لا تتاح لسواه.

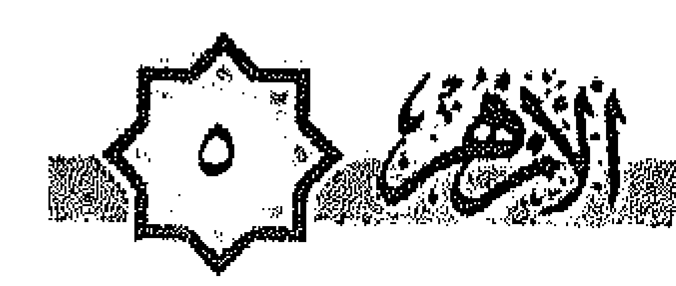
لم يعرف عن الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد انحراف دينى فى كل ما كتب على امتداد عمره البعيد، بل كان قلمه بمنجاة مما تورط فيه بعض الكبار من زملائه، حين أخذوا فى شبابهم الأول ببعض بهارج الاستشراق، وحين رحلوا إلى أوروبا فى عهد كانت فيه سيدة الشرق، ومصباح النور عند قوم، فنقلوا بعض ما يسمعون منبهرين، وفيما نقلوه ما ينحى باللائمة ظلما وافتراء على الإسلام!



كـان الأسـتـاذ العقـاد منذ نشـأته الأولى بمنجاة مما تـورط فيـه هؤلاء ؛ لأن فطرته الصـافيـة قد هدته إلى الطريق القويم ، فكان يقرأ في كل اتجاه لا ليكون أسيرا لما يقرأ ، بل ليصبح صاحب الرأي الأول فيما يطالع ، لم تخدعه الأسماء المجلجلة ، ولم تغشه الأنوار الفـاتنة ، بـل عـرف كـيف يمـيـز الخبـيث من الطيب عن فطرة خالصة يمدها البصر الثاقب ، والفكر المطمئن السديد .

لقـد اتجـه في مطلع حـيـاته إلى الفكـر الأدبي ، ثم إلى النضـال السياسي ، ولم ينذر نفسه للدفاع عن حقائق الإسلام منذ ملك البراع القوي ، والبيان الصارم النافذ ، ولكنـه كان في هذه المرحلة يستحصد ويقوى ، ويكابد ويعالج ، حتى إذا بلغ أشده ، وجاوز الأربعين ، شاء الله له أن يلج المضمار الإسلامي وقد ملك قوة العقل ، وسطوة البيان ، مع إيمـان مطمئن لحـقائق الإسلام ، إيمـان تغذى بالحب والصـدق ، والاسـتـقلال والنزاهة ، وإذا وجدت هذه الصفات مع عقل مـفكر ، وخاطر واثب ، وبصر لامح ، فلا عجب أن يبدع صاحبها في حقل الثقافة الإسلامية ما أبدع عباس محمود العقاد .

عـرف اتجـاه العـقـاد في المنحى الإسـلامي منذ كـتب نقـده لإعجاز القرآن ، الذي ألفه قريعه المبدع الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحـمهما الله ، فـقال فيما قال : فليكن كتابه «الرافعي»



نموذجا فى البلاغة البدوية، أو تسبيحا بالآيات القرآنية، أو تحية يقرؤها المسلم غير سامع إليها، ويقرؤها غير المسلم فلا تزيده بالقرآن علما، ولا تطرق من قلبه أو عقله مكان الإيمان والتسليم(١).

وإذا كان فى هذا القول بعض الشطط، حين جعل كتاب الرافعى نموذجا للبلاغة البدوية وحدها! مع أنه نموذج للبلاغة العربية فى أرقى عهودها الزاهرة ذات الحضارة المثمرة، فإن منحى العقاد فى إقناع غير المسلم هو الهدف الذى يجب أن يوضع صوب العينين لدى كل كاتب إسلامى، لأن العقاد يرى أن الإسلام رسالة عالمية، ويجب على من يكون من فرسانها أن يخاطب العقل البشرى كافة بمنطق العقل وحده، لذلك جاءت كتابة عباس محمود العقاد الإسلامية مقنعة هادية لمن يتلمس الحقيقة الخالصة، بعيدا عن التحيز.

وكان الفكر الإسلامى على يد العقاد صالحا للرواج فى آفاق بعيدة، تتنكر للأديان بعامة، وللإسلام بخاصة، وأعنى بالرواج دوام النظر والتأمل، وإن لم يدفع إلى الاعتناق، لأن الإيمان

---

(١) ساعات بين الكتب ص ١٠، ط ٤.



لدى الكثيرين ليس قضية اقتناع بالدليل، ولكنه إرث يمتد من الأجداد إلى الأحفاد، لدى الكثرة الكاثرة، إلا من استضاء بمصباح التأمل، بعيدا عن الجواذب والحوائل، ومن يكتب له الهداية من هؤلاء يكون فى تأثيره واحدا بألف!

لقد كتب العقاد مؤلفاته الإسلامية جميعها وفى اعتقاده أن قارئه لجوج ملحاح، يريد الدليل المقنع، والمنطق الجاد، ويتربص بالثغرات والمنعرجات ليصل منها إلى ما يريد من العناد فكانت هذه المؤلفات جميعها نمطا من الجدل الهادف، ذى الحسم الواضح.

وقد ذكر الكاتب الكبير فى مقدمة «عبقرية محمد» أنه يكتب عن رسول الله بالقدر الذي يطمئن إليه المسلم وغير المسلم فإذا أنس القارئ من كاتبه بسطا فى الجدل، وعمقا فى التقصى، وتلمسا للسيطرة الملزمة، فليعرف أنه فارس فى ميدان ينازل فرسانا ملئوا الساحة بالضجيج عن غرض مريض.

ولسنا هنا فى مجال السرد لمؤلفات العقاد الإسلامية، وقد ناهزت الأربعين كتابا، يحتاج كل كتاب منها إلى بحث مستقل، ولكننا نسلط الأضواء على اتجاهه الفكرى فى الطريق الإسلامى حين نختار من هذه المؤلفات ما يقرب فكره الدينى

تقريبا ملموسا، لمن أراد الاطلاع السريع.

وقد تحدث الكاتب الكبير عن حقائق الإسلام فى عدة مؤلفات، وعن أباطيل خصومه فى مؤلفات أخر على التفصيل، وإن تعرض لهذه الأباطيل إجمالا فى حديثه عن حقائق هذا الدين، كما تحدث عن حالة الإسلام المعاصر مقارنا بما كان من مجده السالف، وعزه الغابر، ومتطلعا إلى مستقبله المشرق بإذن الله.

أما حديثه عن أعلام الإسلام: فقد اشتهر اشتهارا ذائعا، إذ كان ولا يزال موضع الدراسة لطلاب التعليم الثانوى فى مدى فسيح؛ وقد حظى من التقدير والاحتفاء بما لم يحظ به جانب آخر من جوانب الحقل الإسلامى، لأن حديث الإعلام ذو جواذب وجدانية، تجعله أكثر بريقا، وليس معنى ذلك أنه يفوق فى مادته العلمية شتى الجوانب الأخرى، ولكن معناه أن الحظ السعيد قد مضى به إلى أفق فسيح.

وسنختار فى مجال الحديث عن حقائق الإسلام ما كتبه تحت عنوان «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» وتحت عنوان «الفلسفة القرآنية» وتحت عنوان «التفكير فريضة إسلامية» لأن هذه البحوث تدور فى فلك واحد، وبعضها مكرر معاد، ولكن



تكرار العقاد لا يعنى إعادة السابق كما مر، ولكنه يعنى التفصيل للمجمل، والتوضيح للغامض، والإيجاز للمسهب، لدواع يتطلبها موقف دون موقف، والنظرة الفاحصة لكتاب «حقائق الإسلام» تدل على أنه كتبه للخاصة أولا، وقد تملكه شعور بأن كتابه سيترجم إلى عدة لغات «وهذا ما قام به المؤتمر الإسلامى فعلا» وسيقرؤه نفر كثير من خصوم الإسلام، وفى هؤلاء الخصوم من يرتفع بذكائه إلى مستوى سقراطى، بحيث لا يعيبه أن يمارى فى سطوع الشمس إذا شاء.

لذلك: نجد الطابع الفلسفى الرصين يعم هذا الكتاب الثمين فى كل ما تعرض له الكاتب الكبير من بحوث، نجده فى الباب الأول حين تحدث عن حقيقة الدين، وعن ضرورته اللازمة فى الحياة، فذكر أن أكبر الشبهات التى تعترض عقول المتشككين والمنكرين شبهتان، هما شبهة الشر، إذ لا يستطيعون التوفيق بين وجود الشر فى العالم، وبين الإيمان بإله رحيم قدير فى جميع الصفات، وشبهة الخرافة فى كثير من العقائد الدينية، حين تعجز بعض العقول عن التوفيق بين العقائد وبعض المحسوسات والمعقولات، والمدار مدار فلسفى جاد، سبق فيه الباحث سبقا يعتمد على الحجة العقلية، والنقاش المفحم،

وقارئ هذا الفصل يجده دفاعا عن حقيقة الأديان السماوية بعامة، وعن الإسلام بخاصة باعتباره الصورة الصحيحة لدين الله منذ نزل من السماء إلى الأرض، وقد اكتمل اكتمالا وضيئا على يد محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه.

وقد أصاب الكاتب مفصل الحق حين وازن بين الإسلام وغيره، فذكر أن الديانة «أى ديانة» تفضل سواها بمقدار شمولها لمطالب الروح، وارتقاء عقائدها وشعائرها فى آفاق العقل والضمير، وكذلك كانت الديانة الإسلامية كما آمنا بها، ملة لا تفضلها ملة فى شمول حقائقها، وخلوص عباداتها وشعائرها من شوائب الملل الغابرة حين حرفت عن مسارها الصحيح، إذ إن بعض العقائد يصيب النفس بما يشبه داء الفصام، لأنه يقسم الشخصية الإنسانية على نفسها، ويمزق الضمير الحائر بين نوازع الجسد، ونوازع الروح، وبين سلطان الأرض وسلطان السماء، وبين فرائض السعى، وفرائض العبادة.

وشمول العقيدة الإسلامية هو الذى يعصم ضمير المسلم من هذا الفصام الروحانى، وهو الذى يعلمه أن يرفع رأسه حين تدول دولته أمام المسيطرين عليه، وهو الذى يحفظ كيان الدولة



الإسلامية أمام الضربات التى تلاحقت عليها من غارات الفاتحين، والاستعمار والحروب الصليبية والتبشير.

ثم أفاض الباحث إفاضة مشبعة عن العقيدة الإلهية فى الإسلام، فوازن بين الإله فى رأى أفلاطون وأرسطو مبينا خطأ الاثنين معا، وهما من أصحاب العقول المثالية، واستعرض عقائد الهنود والمصريين منتقلا إلى ما يدين به أهل الكتاب فى إفاضة وإشباع، لينتهى إلى أن الله رب العالمين فى الإسلام لم يكن صورة محرفة من صورة الله فى العقائد الكتابية، كما يوحى بذلك بعض المبشرين، بل كان هو الأصل الذى يئوب إليه من ينحرف عن العقيدة فى الإله الكامل كأكمل ما كانت عليه، وكأكمل ما ينبغى أن يكون.

ووالى الحديث عن النبوة فى القديم والحديث، ليرى أن النبوة فى الإسلام كانت كمال النبوات، وختام الرسالات عن حق صريح، ثم تحدث عن الإنسان والشيطان حديثا يجمل ما فصله فى كتابين مستقلين عن الموضوعين، وخص العبادات والمعاملات بفصلين رائعين، وجاء الفصل الثالث ليعمد إلى اللباب من حقائق التشريع، فيحدث عن الحرية الإسلامية والأمة والأسرة والرق، وزواج الرسول، وحقوق الحرب فى

الإسلام وحق الإمام، وقد أكثر من الشواهد والمنقول عن أئمة الإسلام من المحافظين والمجددين معا، ليبين أن هؤلاء الأعلام مع اختلاف مناحيهم فى التجديد والمحافظة قد فهموا جوهر الإسلام، عن إدراك واع صحيح، فلم يحدث بينهم من الاختلاف ما نراه لدى بعض النحل المخالفة، حين يقف المفكر من أخيه فى ساحة الدين الواحد موقف النقيض من النقيض.

أما الفصل الرابع: فقد تحدث عن الأخلاق والآداب حديث المثقف المعاصر، وقد كان المؤلف صريحا حين ذكر فى خاتمة كتابه أنه لم يؤلفه ليبشر بالإسلام هؤلاء الماديين المتعطشين إلى إنكار كل معنى شريف من معانى الحياة البشرية، ولكنه كتب هذا المؤلف للمتدين المنصف الذى ينظر إلى دينه نظرة واعية، ثم للمسلم الذى يتلقى حملات الخصوم، ليعلم أنه حقيق بالاطمئنان إلى حقيقة دينه، وبمواجهة المستقبل بعزيمة وإيمان.

أما كتاب «الفلسفة القرآنية» فقد تحدث عن أكثر ما جاء فى كتاب الحقائق، وهو حديث إذا اتفق فى النتائج والنصوص والأحداث التاريخية، فقد اختلف فى السياق والتركيب وتعدد التناول النظرى للحقائق، وقد ذكر العقاد أنه فى كتابه هذا



يبين صلاح العقيدة الإسلامية لحياة الجماعة البشرية، وأن الجماعات التى تدين بها إنما تستمد حاجتها من الدين الذى لا غنى عنه ثم لا تفوتها منه حاجتها إلى العلم والحضارة، ولا استعدادها لمجاراة الزمن حيثما اتجه مجراه.

وقد جاء الباب الأول ليتحدث عن القرآن والعلم، ليوضح أن الإسلام يفتح أبواب المعرفة للمسلمين ويحثهم على ولوجها والتقدم فيها، وقبول كل مستحدث من العلوم على تقدم الزمن وليست فضيلته الكبرى أنه يقعدهم عن البحث والنظر كما يزعم الواهمون، وتوالى الحديث عن الأسباب والخلق، وعن الأخلاق المثلى فى منطق الإسلام، ورجوعها إلى المصدر الإلهى وحده لأنها فى مناطها الأعلى لا تتعلق بمنفعة المجتمع، ولا باستطاعة القوة، ولا بالقانون والسلطان، بل تتعلق فوق ذلك كله بما فى الإنسان من حب للجمال، وشوق إلى الكمال، وكلاهما نفحة من الخالق يهتدى بها الأحياء عامة فى معارج الرفعة والارتقاء.

وفى الحديث عن الطبقات أوضح الباحث الكبير كيف أعطى القرآن بنصوصه المفصلة المساواة حقها، كما أعطى التفاوت بين الآحاد والطبقات حده، فلا يمتنع التفاوت، ولا



يكون مع هذا سببا لإعطاء كل ذى حق حقه، ولو كان من المستضعفين فى الجنس، أو من المستضعفين فى المنزلة الاجتماعية.

وقد اتسع الحديث لنقد الشيوعية نقدا واعيا بصيرا، وهو حديث صحب العقاد فى شتى مراحل حياته عن ثقة وإيمان، وربما كان كتابه عن «الشيوعية والإنسانية فى شريعة الإسلام» من أوفى وأدق ما كتب فى موضوعه، وهو حديث يفصح عن خلق العقاد الشجاع، قدر ما يفصح عن عقله النافذ البصير.

ولا نقف عندما قال عن المرأة والزواج فى الفلسفة القرآنية، إذ إن العقاد أفرد لذلك كتابا مستقلا، ولكننا نشير إلى أن قارئ هذين الموضوعين فى كتاب الفلسفة القرآنية يشعر أن الكاتب الكبير سيد الموقف، وأنه حين يوجز الحديث يطوى من المعانى ما يلحظه القارئ البصير من خلال السطور، أما حين يبسط الحديث فى الموضوع نفسه، فإن القارئ البصير يشعر براحة نفسية إذ يجد ما استشعره من خلال الكلمات قد جاء مبسوطا مسهبا، ومعنى الإسهاب لدى العقاد يختلف عن معناه لدى سواه؛ لأن إسهاب العقاد هو استرسال فى الحجة واستطراد فى الإقناع، وإحاطة بالموضوع من كافة نواحيه، وليس لألفاظ تتسع



وتمتد دون أن تضيف الجديد، وإذا أضافت شيئا فليس بالرائع الباهر.

وفى كتاب الفلسفة تقرير لحقائق قوية عن الرق فى الإسلام مقارنا بسواه، وعن العلاقات الدولية، ومسألة الروح والقضاء والقدر، والتصوف، والحياة الأخرى، وكلها بحوث عويصة لم تكتب بالسهولة التى يظنها القارئ حين يستمرئ طعاما شهيا قد نضج على ناره الهادئة، فيظن أن طاهيه لم يتكلف شيئا! ولكنه لو أحاط علما بما قرأ الكاتب الكبير حين قدم هذه الفصول، من مراجع فلسفية، ذات استعصاء لأدرك أى عناء كابد.

وطبيعى أن يكون عناء المتحدث عن القضاء والقدر، والروح والمادة، والحياة الآخرة، والجنة والنار، وموقف الحساب والعقاب، وأمثال هذه الشوائك الدقيقة، مما يتطلب برهانا قويا؛ لأن العقاد لا يجعل النص وحده دليله، بل يجعل العقل مفسر النص ومؤيده وهاديه!

وقد يضطر القارئ إلى مخالفة الكاتب الكبير فى بعض اتجاهاته، كما جاء فى بعض حديثه عن نعيم الجنة الروحى، ولكنها مخالفة من يقدر وجهات النظر، واعتماد الباحث على

نصوص قوية لأئمة كبار من المفسرين والمتكلمين، بلغوا الذروة الشاهقة فى دنيا النظر الصائب والجدل السديد، مع مقارنات طريفة، من ما قاله أعلام الإسلام، وأحبار الديانات الأخرى، تنتهى إلى قول العقاد الدقيق: «إذا أعطينا أسلوب العقيدة حقه من التعبير، ففى العالم الآخر كما يدين به المسلم رضا للوازع الأخلاقى، ورضا لدوافع التفكير، ورضا لعقيدة الدين».

أما كتاب «التفكير فريضة إسلامية» فقد كتبه العقاد متأففا من قوم يدعون أنهم درسوا الإسلام، وتبطنوا حقائقه، فرأوه يدعو إلى الانقياد والتسليم دون تفكير وتأمل! وهؤلاء يكذبون عن عمد، حين يزعمون أنهم درسوا الإسلام، وانتهوا إلى نتيجتهم الباطلة، لأن دارس الإسلام لابد أن يقف على نصوص القرآن والحديث، وتطبيق السلف لما جاء بهما وكل ذلك يدل دلالة صريحة على أن الإسلام دين العقل، ولكن المغرضين من هؤلاء يبذلون أعنف الجهد فى جمع ما يوحى ببعض التعارض من النصوص للوهلة الأولى، محاولين أن يضربوا الأقوال بعضها ببعض، ليجبروا القارئ على أن يعتقد أن الإسلام يقف فى طريق التفكير.

لهؤلاء وأمثالهم أعاد المؤلف الكرة ليجمع فى كتاب واحد



ما يؤكد أن التفكير فريضة إسلامية محتومة، وأن مزية القرآن الأولى، هى التنويه بالعقل والتعويل عليه، فالعقل لا يذكر فى كتاب الله إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به، والرجوع إليه، ولا تأتى الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة فى سياق الآية،، بل هى تأتى فى كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة.

ومن خصائص العقل: ملكة الإدراك التى يناط بها الفهم والتصور، كما أن من خصائصه أنه يتأمل فيما يدركه ويقلبه على وجوهه، ويستخرج منه بواطنه وأسراره، ليعرف كيف يهتدى إلى الحكم الصحيح، والرشد من أعلى خصائص العقل الإنسانى؛ إذ هو تمام تكوينه وثمرة وجوده.

ثم يكثر الأستاذ من النصوص القرآنية الصريحة فى تأييد ذلك كله، ليصل إلى أن العقل الذى يخاطبه الإسلام هو العقل الذى يعصم الضمير، ويدرك الحقائق، ويميز بين الأشياء ويوازن بين الأضداد، حتى يصل صاحبه إلى مرتبة الحكمة:

﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

(البقرة: ٢٦٩)

وفى باب الموانع والأعذار: تحدث الكاتب عما يمنع أشعة العقل من النفاذ إلى الحقائق، وأكبر هذه الموانع عبادة السلف فى عرفها السائد، والاقتداء الأعمى بأصحاب السلطات الدينية، والخوف المهين من أصحاب السلطة الدنيوية، والإسلام يأبى على المرء أن يحيل أعذاره على السلف من الآباء والأجداد، كما يأبى له الخضوع إلى ذوى الكهانة من المحترفين، ويدعو المسلم إلى الجهاد والهجرة، فرارا بعقيدته من الاضطهاد، وصفوة القول ـ فى منطق العقل ـ: أن الإسلام لا يعذر العقل الذى ينزل عن حق الإنسان رهبة للقوة أو استسلاما للخديعة، ولا حدود لذلك إلا حدود الطاقة البشرية كما تنهض بها الأمم، دون أن تقتصر على طاقة فرد.

وفى مجال إكبار العقل: تحدث الكاتب عن المنطق باعتباره جامعا لأسباب النظر والتمييز، وقد فرق فى دقة بالغة بين المنطق والجدل، فالمنطق فى أصل وضعه علم يبحث عن الحقيقة من طريق النظر المستقيم، والتمييز الصحيح، أما الجدل فيبحث عن الغلبة والإلزام بالحجة، وقد يتحرى مجرد السبق والفوز فى مجال المناقضة دون نظر إلى الحق فى ذاته، وكل ما يشير إلى كراهة المنطق فى



بعض أقوال الأئمة من السابقين يختص بالجدل وحده، لأنه فى كثير من أموره لجاج وعناد وتطاول، أما المنطق العاصم من الشبهة، والمانع من الخطأ فلن يكرهه أحد، وقد استشهد العقاد بنصوص صريحة للغزالى، وابن تيمية، والسيوطى تعضد دعواه.

ثم جال القلم الجبار جولاته الموفقة متحدثا عن الفلسفة والعلم والفن الجميل، وعن المعجزة والاجتهاد فى الدين، وعن فنون تتعلق بالتصوف والمذاهب الفكرية والاجتماعية، والعرف والعادات، لينتهى إلى أن التفكير الصحيح واجب محتوم فى الإسلام، وليقول: إنه ليس من روح الدين الحنيف أن يجمد المؤمن على عادة موروثة؛ لأنها عادة موروثة فحسب، وليس من روحه أن يرفض عادة جديدة لأنها عادة جديدة فحسب، ولكن المسلم يعتصم من روح الإسلام بحصافة تعيذه من سحر الغلبة، فلا تهوله بروعتها، وتلك مفخرة للإسلام تتمناها الأمم متى اختارت لنفسها الصراط القويم.

- ٢ -

نعرف أن نفرا من ذوى الغيرة الدينية قد تخصصوا فى رد الشبهات الظالمة التى يحاول أعداء الإسلام ترويجها بشتى الأساليب ، ولهم فى هذا المضمار احتيال آثم ينأى عنه كل ذى أمانة علمية ، إذ إن أحدهم يظن الظن المتوهم دون دليل ملموس فيحكيه بصيغة غير جازمة ، ويجيئ غيره على الفور فيتخذ الظن حقيقة ، ويطيل الكلام فى تأييده راجعا إلى ما حكاه سابقه ، باعتباره مصدرا صحيحا لا مرية فيه ، مع أن سابقه المفترى قد قدمه فى صيغة الشك لأنه اختلقه اختلاقا من ذات حقده الخائن ، ويجيئ الثالث فيتحدث عن الاختلاق المتكرر وكأنه حق لا شك فيه ، وأمامه مصدران «محترمان !!» ومن هنا كثرت الأراجيف المزعومة ، فنهض لدرئها كبار المخلصين.

وإذا كان جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، ومن وليهما من تلاميذهما المثقفين قد بدآ بالدفاع الملجم أمام هذه الأراجيف فإن الأستاذ العقاد لم يقتصر على الدفاع وحده ، ولكنه بثقافته



الواسعة قد ولج إلى البواعث والأسباب، فكشف عنها فى جهارة وسطوع، حين حدد الطوائف المناوئة للإسلام على اختلاف مناحيها، بل على تناقض مناحيها، إذ تجمع الكفرة الملحدون وفريق من أهل الكتاب المتدينين على غرض واحد هو تشويه الإسلام.

وقد عرف العقاد هذه الحقيقة، وعللها بأن الماديين من الملحدين يجدون الإسلام أقوى من خصومهم، فليس فى المسيحية مذهب شامل فى السياسة والاقتصاد والاجتماع يقف أمام شيوعيتهم الخادعة، ولكن الإسلام وحده صاحب الحل المتكامل فى شئون الحياة؛ إذ يقيم المجتمع على نظامه الواضح، ويقرر الحقوق والواجبات بقسطاس مستقيم، نص عليه فى آيات الذكر الحكيم، كما أنه بشموله الواسع يحيط بشئون الدنيا جميعها أفرادا وجماعات، ويتقبل الجديد الصالح؛ إذ يجد أصوله فى تعاليمه الأصلية، وينفى الجديد الخبيث إذ يجد لديه من المناعة ما يدفع بالميكروبات والجراثيم عن جسم صحيح الأعضاء مكتمل الحياة! لذلك كان الشيوعيون ومن تبعهم من الملاحدة يبذلون فى مهاجمة الإسلام ما لا يبذلون معشاره فى مواجهة دين آخر.

أما المغرضون من المتدينين المحترفين، فهم فى رأى العقاد

سماسرة التبشير الذين يتخذون تشويه الإسلام صناعة يستدرون بها الرزق، ويتوسلون بها إلى جاه الرئاسة وسمعة الصلاح والتقوى بين المتعصبين والجهلاء في البلاد الأوروبية والأمريكية، فهؤلاء هم أصحاب مصلحة خاصة في تشويه الدين الإسلامي وتمثيل المسلمين على الصورة(٢) التي تذكي عند القوم جذوة التعصب، وتملى لهم في الجهالة والغفلة، فلا يسرهم أن تظهر الحقيقة لهم، ولمن يستأجرونهم ويرسلونهم للتبشير، ولا يندر أن يكون المبشر ملحدا بالدين كله مسيحيه وإسلاميه - وتلك ملاحظة ذكية للأستاذ العقاد - ولكنه يعلم أنه يقطع موارد رزقه إذا كشف عن إلحاده، أو قال عن الإسلام قولة حق وإنصاف، تمحو عداوة الأعداء وتضعف غيرتهم، وحملاتهم التبشيرية في بلاد المسلمين، فهو إذن كاذب يتعمد الكذب لينتفع به ولا يزحزحه عنه علمه بالحقيقة التي لا يقتنع داخليا بمواجهتها، ولكنه في قصارى أمره مرتزق ميت الضمير.

وأوجع ما يكون الدس وأنكاه حين يكون من دارس مثقف

---

(٢) ما يقال عن الإسلام للعقاد ص ١٠، ط بيروت.





يُلبس الباطل ثوب الحق، حين يزن الأشياء بميزانين مختلفين، لأن مثل هذا المغرض لابد أن يتكلم عن المسيحية والإسلام معا، فإذا كان الميزان واحدا فلن يصل إلى هدفه المقصود فى تحطيم الإسلام، فليغير الميزان إذن ليواصل دسه المنكر.

وقد سبر الأستاذ العقاد غور هذا الطراز من هؤلاء، فوجدهم دائما ينظرون نظرة جانبية إلى الإسلام وحده، ولا يعممون هذه النظرة إلى غيره فيما يعالجون من مسائل المسيحية فى أوروبا وأمريكا، وعندهم أن مسائل الإسلام يجب أن تكون موسومة بالغرابة والشذوذ والمخالفة، فهم يتطلبون الشاذ الغريب فى كل مسألة إسلامية، ولا يحسبون أن التعليل العلمى يتسع لتفسير الإسلاميات وغير الإسلاميات على قاعدة واحدة من قواعد الفهم والتحليل.

وقد تسربت طريقة هؤلاء - للأسف - إلى أذنابهم وتلاميذهم من الشرقيين مسلمين وغير مسلمين[٣] فأكثرهم يبتدئ البحث بالتفرقة بين ما يبحث فى شئون الإسلام، وما يبحث فى شئون غيره، وكلهم يخص الإسلام بمنظار خاص، فإذا عدل

---

(٣) ما يقال عن الإسلام ص ١٣٠.

عنه إلى غيره جاء بمنظار آخر.

هذه النظرات الثاقبة من العقاد، جعلته يفهم طريقة الإقناع الملجمة لمن يقرأ هؤلاء، لأن أصحاب هذه الطعون يعرفون زيفها في نفوسهم، والأولى أن نتعدى نقاش الجاحد إلى من يقرؤه ممن يصدق الأشياء جاهلا بواعثها، والعقاد نظار منطيق، يدرس القضية المتسعة ليحيط بأسبابها ونتائجها فى صبر وأناة، ثم يخلو إلى نفسه ليواجه نقاط القوة البارزة فى يد الخصم، بأعنف ما يعصف من الأدلة المركزة فى حسم لا يسمح للجاج، ونحن قد قرأنا كثيرا مما قاله المدافعون عن الإسلام فى قضية انتشار الإسلام بالسيف، تلك التى اتخذها ذوو الأغراض علكا يلوكونه فى كل حين، دون أن يدركوا ملل السامعين، ودون أن يستشعروا تعب الأسنان والأضراس من مضغ هذا العلك المملول، قرأنا كثيرا مما قاله هؤلاء المدافعون، وقرأنا معه ما كتبه العقاد، فرأينا الحجة الباهرة فى إيجاز، والإفحام الملجم فى نفاذ، والحق الصريح فى وضوح.

يذكر العقاد ـ فى هذا المجال ـ أن الإسلام استخدم القوة كما استخدمها كل دين فى تاريخه، ولم يكن الإسلام لينتصر بالقوة وحدها، لو لم تكن أهدافه الإصلاحية مدعمة لهذا الانتصار،



هذا إلى جانب الحقائق التالية :

١ ـ كان الإسلام فى بداية عهده هو المعتدى عليه لا المعتدى، وظل كذلك حتى فر من مهبطه إلى بلد آخر، فلم يرح من المؤامرات والمخالفات المتجمعة للاعتداء والاستئصال ! وقد كانت حروب النبى دفاعا ، ولم تكن منها حرب الهجوم إلا سبيلا للمبادرة بالدفاع بعد الإيقان كل الإيقان من نكث العهد، والعمل على الغزو والاعتداء .

٢ ـ يعاب على الإسلام أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع، ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف سلطة تقف أمامه بالسيف، وتحول دون أن يبلغ مداه الإصلاحى من النفوس، لأن السلطة لا تزول إلا بالسلطة، ولن تجدى الحجة فى إقناع ظالم متكبر، يرى أنه وحده صاحب الرأى المطاع، وفى أحداث التاريخ المتتابعة ما يدل على أن السلطة لم تذعن للرأى المجرد فى يوم من الأيام، ولكنها أذعنت للجهاد .

٣ـ أن الإسلام لم يحتكم للسيف قط، إلا فى الأحوال التى أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها، لأن الدولة التى يثور عليها أعداؤها فى الداخل أو الخارج لا تجد بدا من

مقاومتهم، فالسلاح في هذه الحالة أمر لا مفر منه، وبعده تأتى الهدنة، فالاتفاق على الصلح والوئام.

٤ ـ للأديان الكتابية وضع غير وضع الإسلام، فاليهودية لم تكن لتدعو إلى انتشار مبادئها بين الناس، بل تؤثر الانزواء والاحتجاز، ومثلها في انكماشها المتحيز لا تحتاج إلى القتال في شيء، أما المسيحية فقد عنيت أولا بالآداب والأخلاق، وظهرت ثانيا في دولة تحكمها دولة أجنبية لا سبيل إلى مقاومتها، ولكن الإسلام قد عنى بالمعاملات والشرائع الدستورية، دون أن يقتصر على الآداب والأخلاق، كم أنه ظهر في وطن لا سبيل لسيطرة الأجنبى عليه، داعيا إلى مثل جديدة تتطلب الانتشار العام بين الناس، فإذا اختلفت نشأته مع نشأة المسيحية، فإن ذلك الاختلاف هو الذى منعها بدءا من امتشاق السيف بدليل أنها اضطرت إلى الحروب المتكررة في حياتها الطويلة منذ أصبحت ذات دولة! وذلك يدل على أن القتال لا مفر منه.

٥ ـ أن الفتوح الإسلامية لم يتم شيء منها إلا بعد أن استقرت الدولة الإسلامية، وأصبحت ذات وضع سياسى معترف به، فلا يمكن إذن أن يقال: إن هذه الفتوح كانت سبب انتشار الإسلام، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الإسلام أجاز للأمم





المفتوحة أن تبقى على دينها مع أداء ضريبة الدفاع، فليس فى الأمر إلزام باعتناق الإسلام.

٦ ـ أن المقابلة بين البلاد التى فتحها الإسلام فى حالتين مختلفتين، حالتها قبل الفتح، وحالتها من بعده، هذه المقابلة تجعل للإسلام وجهه الكريم فيما هدف إليه من إصلاح وإسعاد، واستتباب أمن، وصيانة للكرامة الإنسانية من أن تهان.

بهذه الحجج المقنعة ملك العقاد زمام الموقف، وبأمثالها كان صاحب رأى جهير فى قضايا الإسلام، بحيث يغنى عن غيره فى الكثير، ولا يكاد يغنى عنه سواه.

فإذا أراد القارئ دليلا آخر فإننا نوجز فى أسطر معدودات ما ذكره العقاد فى موضوع «الرق فى الإسلام» حيث كان الطبل الأجوف الذى يضرب عليه ذوو الأبواق ممن يشهرون بالأراجيف، دون استعداد للفهم الصحيح.

إن الذين يسلكون منحى العقاد فى تبرير الرق فى الإسلام يتحدثون عنه، وكأنه شىء زال وانقضى فى العصر الحديث، تحت تأثير الحضارة الأوروبية، التى أوجبت خدمة الإنسانية بتحريمه، ولكن العقاد يلفت الأذهان إلى حقائق جديدة بالنسبة لمن قرءوا دفاع المخلصين عن الإسلام، ونحن نوجز هذه

الحقائق المسكتة فى هذه النقاط ، لتدل على مدى البصر النفاذ لهذا الذهن البصير[٤] :

١ ـ إن القوانين الدولية اليوم تبيح تسخير الأسرى واعتقالهم إلى أن يتم الفداء بتبادل الأسرى ، أو بذل التعويض الذى تفرضه الدولة الغالبة ، وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل أن تنظم بينها معاملات الحرب ، كما نظمها الإسلام ، حين جعل على الدولة الإسلامية أن تحرر الأرقاء من أحد مصارف الزكاة «فى الرقاب» .

٢ ـ إن الدولة الغربية لم تهتد إلى نظام التبادل إلا بعد قيام الحروب بينها وبين الدول الإسلامية ، فتعلمت من المسلمين وحدهم نظام تبادل الأسرى ، ولو وجدت شريعة الفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد كما وجدت عند الحكومة الإسلامية لتقدم العالم كله فى قضية الأسر والرق أكثر من عشرة قرون .

٣ ـ ماذا كان يحدث فى هذا العصر لو لم يأخذ الآخذون بنظام الإسلام فى التبادل ؟ وماذا تصنع كل دولة بمن لديها من

---

(٤) ما يقال عن الإسلام ص ١٥٢ وما بعدها .



الأسراء؟ أتعفيهم من العمل؟ أتعاملهم معاملة المواطنين؟ إنها لا تصنع أكثر مما صنعه الإسلام، يوم أوجب على المسلمين أن يمنوا بالتسريح، أو يقبلوا الفداء أو العتق، أو يوجبوه في مقام التكفير والإحسان.

٤ ـ جاءت أولى خطوات الحضارة الحديثة في تحرير الأرقاء، على أثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى في بلاد تنفق الأجور الوافرة على الصناع، وبين أصحاب هذه الصناعات حيث تدار بأيدي الأرقاء، ولا تنفق عليها أجور فاضطر أصحاب الأموال إلى إطلاق الأسراء، لأن الدولة ستجبي من الضرائب ما يجعل النفقات متعادلة، فيزيد أصحاب العبيد على منافسيهم بمغارم المطعم والملبس والسكنى، ويصبح الرقيق عبئا.

٥ ـ احتاجت دول الحضارة إلى تجنيد العبيد في صنع السلاح أولا، ثم إلى مجموعة الأصوات في الانتخابات ثانيا، ثم إلى الإذعان لرغبات الكثرة الكاثرة من أبناء القارة الإفريقية خوف الشقاق المدمر ثالثا، وإذ ذاك وجدوا أن الحرية أمر مفروض لا معدى عنه.

٦ ـ إن الموازنة بين الأرقاء في المدن الإسلامية من ناحية العدد، وبينهم في الدول الغربية، تنطق بلسان الأرقام معلنة أن

عددهم فى الدول الإسلامية لم يزد بعد ثلاثة عشر قرنا عن ثلاثة ملايين، على حين كان عدد السود فى الأمريكتين فقط قد بلغ العشرين مليونا، ولم يمض على حكم الرجل الأبيض أكثر من ثلاثة قرون.

٧ ـ لا وجه للمقارنة بين المساواة فى النسب والمصاهرة وحقوق الدم والمال فى الإسلام وبين تحريم ذلك كله، واستباحة الدم انتقاما من الأسود حين يريد بعض هذه الأشياء لدى الغربيين.

هذه النقاط جميعها ملزمة مقنعة وقد أكدها العقاد بعد أن ألمع إلى الشائع المشتهر من أقوال زملائه التى عرفت فى هذا المجال، مثل اشتراك جميع الأديان فى إباحة الرق، دون أن تشرع ما شرعه الإسلام من وجوب العتق فى مواضع، واستحسانه فى مواضع أخرى، ومثل ضرورة فك الإسار تكفيرا عن ذنوب مشتهرة، مما يدل على تشوف الإسلام للحرية، مع الإشارة إلى أقوال أفلاطون وأرسطو والقديس بولس وتوما الأكوينى فى تحبيذ الرق(٥) مما يوضح شمول النظرة لدى العقاد، وهو شمول

---

(٥) الفلسفة القرآنية ص ٨٢.



أكدته سعة الثقافة وعمق الاستنباط معا، مع صبر دائب على التأمل والتشريح.

على أن الدفاع عن الإسلام لا يقف عند رد المطاعن وحدها فى آثار العقاد، بل كان منه مهاجمة المذاهب الحديثة التى خدعت الناس بطلاء زائف، وكادت تقنع بعض السذج بأنها تشمل قفزات واثبة فى مضمار التقدم الحضارى، وهى تحمل من بواعث الانحلال والتقهقر ما لمحه العقاد بين الطيات المتداخلة فأفصح عنه بجلاء.

لقد حارب الكاتب الكبير نزعات التكبر المغرور فى الفاشية والنازية، حتى أصبحت حياته موضع الخطر فى بعض ظروف الحرب العالمية الثانية، كما وقف من الوجودية موقف المفكر الذى لا يخدعه الطلاء الخارجى عن التعفن الداخلى، كما لا نظن أن كاتبا عربيا مسلما أبلى بلاءه فى منازلة الشيوعية؛ إذ دأب على مهاجمتها يوم كانت لدى بعض الأغرار وسيلة النجاة من كل مأزق، وموضع الحل المحتوم لكل أزمة.

وتعرض فى شجاعة لكثير من السفاهات المنحطة، التى ترشح بها نفوس سوداء، تحمل سموم العداء للرقى والتقدم وهى تدعى فى وقاحة أنها تعمل على نشر المحبة والسلام.



وما كتبه العقاد عن الشيوعية منذ كان لها دولة حتى فارق الحياة، أكثر من أن يحيط به الحصر، وما جمعه في كتاب خاص تحت عنوان «الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام» لا يمثل إلا خلاصة مقربة لما عكف على إذاعته من مقالات شديدة السطو على مدى يزيد عن أربعين عاما، لم يتخلف فيها الكاتب الكبير عن إعلان صوته الجهير في منازلة المأجورين من العملاء، حتى في أشد أيام سطواتهم القاهرة، حين أخذوا يسيطرون على أدوات النشر، استجابة لنزعات سياسية سادت بعض دول الإسلام في فترات تتقارب وتتباعد مدا وجزرا.

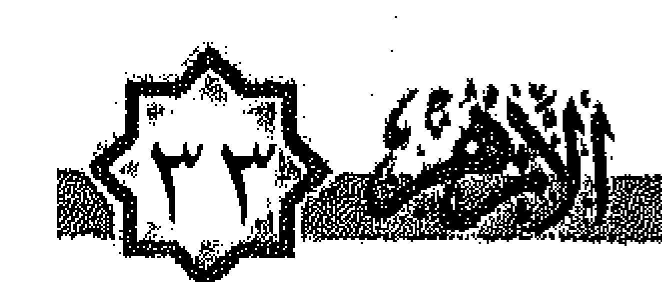
وما قلناه عن حديث الكاتب حين عالج موضوع الرق، نقوله عن حديثه حين كرر سطواته على الشيوعيين، إذ أنه جاء بفيوض من الحقائق المقنعة تكتسح ما يتراكم من تلال الدعايات الوبيئة من أرجاس، ومن أوضح ما قاله العقاد في هذا الصدد: إن التفاوت بين الناس موجود دون إنكار ولكنه لا يمنع المساواة في الحقوق والواجبات، ولا يكون سبباً للظلم والإجحاف، وحكمة التفاوت ظاهرة؛ لأن الحياة تفتقر إلى التعدد الدافع للعمل لا إلى تكرار الصورة الواحدة التي لا تسفر عن شيء، ولا معنى للتفاوت إذا تساوى العامل والكسول، والنشيط



والخامل، واطمأن المجردون من المزايا إلى خمولهم الساكن، حاسبين أنهم سينالون ما نال المكافح المجاهد، وهو ما لم يحدث في دولة الشيوعية التي قدرت للرؤساء كل نعيم، وجعلتهم أباطرة يتحكمون باسم الشيوعية التي ادعت المساواة، وجعلت الرؤساء في القمة والمرءوسين في الحضيض، وهو واقع ملموس لا سبيل إلى إنكاره.

يقول الكاتب الكبير ببعض التصرف:

لقد تأسس النظام الشيوعي منذ ثلاثين سنة (كان ذلك سنة ١٩٤٧) فحاول أن يقضي على الطبقات، فما هي إلا سنوات حتى ظهرت بوادر التفاوت بينها، وظهرت بين أناس يرغبون في منعه، ويؤمنون ببطلانه، ودانوا بما تدين به حكومتهم إذ نشئوا تحت ظلها، ولم يسمعوا رأياً مخالفاً، وقد بدءوا التجربة فلم يتقدموا خطواتهم الأولى حتى تبين لهم خطر التسوية بين المطبوع على العمل والمطبوع على الكسل، وبين من يركن إلى الكفاف ومن يطمح إلى التفوق والبروز، وقد سمحوا بشراء الكماليات، وأضافوا التفاوت في حظوظ المعيشة، وفي مراتب الشرف، إلى التفاوت في الأجور والمكافآت، وأنشئوا الطبقات باليمين وهم يحاربونها باليسار وكان هذا كل ما استفادته الأمة الروسية من هذه التجربة الدامية التي كلفتها نيفا وعشرين مليونا من النفوس البشرية، بين قتلى الثورة،



وفرائس الاضطهاد ، وصرعى المجاعة والوباء ، عدا خسارة الأمة فى الحرية واستقلال الفكر والشعور (٦) .

ويقول الأستاذ العقاد فى مقام آخر ببعض التصرف أيضا : والشيوعية فى لبابها قائمة على خليقة الحسد ، لأنك لاترى شيوعيا إلا رأيته حاسدا للممتازين من خلق الله ، كيفما كان سبيل الامتياز، وليس منهم من يشعر بالعطف على الضعيف والفقير ، ولكنهم جميعا يحقدون على القوى والغنى ، وعلى صاحب فضل يشيد به الآخرون ، وليست التفرقة عندهم بين الناس تفرقة بين من يحمد أو يذم ، ولا تفرقة بين من يحب ويكره ولا تفرقة بين من يكرم ويلؤم وإنما هى على الجملة تفرقة بين من يحسد أو لا يحسد ، كائنا من كان مثار الحسد عليه (٧) .

وقد حنق الشيوعيون على الكاتب الكبير ، لأنه كشف عن دخائلهم بمجهره الدقيق ، فأخذوا يحطون من قدره ، حين يوازنون به سواه ، لاحبًّا فى غيره ، ولكن لينفروا الناس من تتبع آثاره ، ولكن الله كان مع الحق ، فمازالت مؤلفات الرجل العظيم تطبع متعددة ذائعة ومازال مرور الزمن يزيده تقديرا فوق تقدير .

٦ـ الفلسفة القرآنية ص٤٢.

(٧) فى بيتى ص ٤٨.



ـ٣ـ

ظهرت مؤلفات قيمة عن رسول ﷺ والخلفاء الراشدين، بدأ بها المغفور له الأستاذ محمد أحمد جاد المولى، وتلاه الدكتور هيكل، والدكتور طه حسين، والأستاذ توفيق الحكيم، والأستاذ محمد فريد وجدى، وغيرهم من كبار المفكرين والأدباء، ولكن هذه ا لمؤلفات وماحقها بعد ظهور (عبقرية محمد) لن تغنى عما كتبه الأستاذ العقاد فى شىء، لأن العقاد لم يكتب السيرة النبوية على نهجها المعهود، وإنما كتب سيرة رسول الله بالحق الذى يثبت له الحب فى قلب كل إنسان وليس فى قلب المسلم وكفى ـ كما قال فى مقدمة الكتاب ـ وبالقياس الذى يفهمه المعاصرون، ويتساوى فى إقراره المسلمون وغير المسلمين، ليقيم البرهان على أن محمداً عظيم فى كل ميزان عظيم فى ميزان الدين، وعظيم فى ميزان العلم، وعظيم فى ميزان الشعور وعظيم عند من يختلفون فى العقائد، ولا يسعهم أن يختلفوا فى الطبائع الآدمية.

وهذا المنحى الذى قصده العقاد واضح لا لبس فيه، ولكن نفرا ممن يسوءهم أن يظهر كتاب عن نبى الإسلام بهذه الجهارة

الساطعة، عز عليهم أن يسبق العقاد فى مجال ركض فيه الفحول فجاء سابقاً غير لاحق.

وفى الكاتبين أنفسهم من عز عليهم أن يسبقه العقاد فى مجال السيرة النبوية، وتاريخ الخلافة الراشدة، فقال إنه لم يفهم ما كتب العقاد! قال ذلك بعد أن لقى العقاد ربه، وأصبح حديثاً يروى لا أسداً يزأر، فيرعب فيخيف، وقد اضطر المدافعون عن العقاد أن يبرزوا من آثار هذا الناقد ما يدل على مديح مفرط كتبه محتفلاً منوها فى رسالة بعث بها للعقاد.

وقد أنصف الأستاذ توفيق الحكيم كتاب (عبقرية محمد) حين قال عنه (٨):

«من الفصل الأول أدركت أن الأستاذ العقاد لديه ما يقول وأن الكلام الذى عنده يرغمنا على أن نصغى إليه، وأن كل ما عرف من قبل عن النبى محمد لن يغنينا عما عند العقاد، لأن العقاد قد درس وفكر، واستنتج لنفسه، ثم صنع للنبى ﷺ صورة (قلمية) لا يمكن أن يرى نظيرها، وفى صفحات مثل صفحات كتابه المتوسط الحجم، أنه ما قرأ ليكتب سيرة، كما

---

(٨) مجلة الثقافة العدد ١٧٥ - ٥/٥/١٩٤٢.



فعل الذين سبقوه، ولم يرو لنا قصة، ولم يسرد تاريخاً ولكنه رسم ملامح، وخط قسمات، وأبرز ذلك الوجه الشريف الجليل.

على أن الحرى أن نلتفت إليه، هو الطريقة التى جرى عليها العقاد فى تحقيق غرضه، فهو لم يكتف باستخراج الوقائع من بطون كتب السيرة؛ لأنه يعلم أن هذه الوقائع قد أصبحت معروفة لأكثر الناس، بما ظهر من كتب حديثة العرض عصرية الأسلوب، فنراه قد استخدم هذه الوقائع استخداماً آخر جديداً واستنطقها معانى أخرى طريفة، ولم يرض أن يسير خلفها لتقوده كما فعل أكثر الرواة، بل تناول هو زمامها وقادها بيدين من المنطق السليم، والتفكير المستقيم، فى طريق كله ضوء ونور.

وفى الحق أن أظهر ظاهرة فى الكتاب هى قوة الاستنتاج العقلى، التى تستولد من الحوادث الصماء، خصائص ومقومات لتلك الشخصية الإنسانية الكاملة، وجاوز الأستاذ العقاد التمحيص والاستقراء إلى البحث المقارن فى أغلب الأمور عارضاً حال الأمم الأخرى فى مختلف العصور، ليبين على وجه التحقيق مركز الفكرة التى يجليها من التاريخ الإنسانى العام».

وما قاله الأستاذ توفيق الحكيم عن عبقرية محمد يصدق على العبقريات جميعها ؛ لأن منهج الكاتب الأدبى واحد فى تناول هذه الشخصيات البارزة فى التاريخ الإنسانى بعامة.

وقد أشار الأستاذ العقاد إلى هدفه حين ذكر فى مقدمة كتبه أنه لا يكتب سيرة، ولكن يكشف عن نفسية عظيمة تصلح أن تكون موضع القدوة.

ومع وضوح هذا القول تقريراً وتطبيقاً، فقد وجد من يتجاهله عن غيظ تعرف بواعثه الدفينة فزعم زاعم أن العقاد بكتابة العبقريات الإسلامية يتجه إلى (الميتافيزيقيا) أو إلى ما وراء الطبيعة بدلا من الاتجاه إلى الطبيعة والمجتمع!

وهذا خطأ كاذب، لأن سير العظماء الذين مثلوا أعظم أدوار الإنسانية فى اتجاهها الصحيح، ليست خروجاً عن عالمنا المعاصر إلى ما وراء الطبيعة، ولكنها ولوج فى صميم المجتمع، إذ يقدم الكاتب الأنموذج الإنسانى الأعلى للحياة.

وقائل هذا الزعم لا يعنيه أن تصلح الحياة بإحياء هذه النماذج الصالحة للقدوة، ولكنه يضيق ذرعاً بأبطال الإسلام ويرى فى الإشادة بهم تضييقاً على ما يتسع له فى محيط التبذل من إسفاف وسقوط، وفى محيط التعامل من غدر وخيانة



ودس وكيد ! فكيف يطيق أن يذكر هؤلاء البررة ليكونوا بمثابة لعنات تصب عليه .

كما زعم زاعم آخر أن العقاد يبتسر التاريخ ابتساراً ليخدم أغراضاً خاصة على حساب الحقيقة .

وقائل هذا الزعم لا يحب الحقيقة التي يتظاهر بالدفاع عنها ؛ لأن العقاد لم يذكر حادثاً واحداً غير حقيقي ، حتى نزعم أنه يبتسر التاريخ لأغراض خاصة على حساب الحقيقة ، فكل ما ذكره العقاد من الأحداث والوقائع حق لا مبالغة في سطر واحد من سطوره ، بل في لفظ واحد من ألفاظه ! ولكن الزاعم المضطغن لا يريد الترحيب بأبطال الإسلام قدر ما يريد الإشادة بأناس لوثوا تاريخ الحياة سقوطا وانحرافا ، وكأنه وازن بين من يحبهم ومن يتحدث عنهم العقاد ، فرأى الفجوة من الاتساع بحيث لا يجوز أن تشمل النقيض ونقيضه في مجال واحد ، هو مجال الإعزاز والإكبار ، بل يجب أن يكون إكبار الفضلاء باعثاً حقيقياً على احتقار الهابطين من ذوى الأهواء !

وقد عرف العقاد أن أعداء اتجاهه سيفترون الأقاويل تشويها لمحاسن ما أبدع في العبقريات ، فاضطر إلى أن يبسط وجهة نظره في مقدمة عبقرية الصديق ، مع وضوحها الساطع لدى



دارسى العقاد، وقارئى ما أبدع من روائع، قبل أن يكتب هذه المقدمة. قال العقاد [٩]:

«إننى لا أكتب ترجمة للصديق رضى الله عنه، ولا أكتب تاريخا لخلافته وحوادث عصره، ولا أعنى بالوقائع من حيث هى وقائع ولا بالأخبار من حيث هى أخبار، فهذه موضوعات لم أقصدها، ولم أذكر في عناوين الكتب ما يعد القارئ بها ويوجه استطلاعه إليها، ولكنما قصدت أن أرسم للصديق صورة نفسية تعرفنا به وتجلو لنا خلائقه، وبواعث أعماله، كما تجلو الصورة ملامح من تراه بالعين، فلا تعنينا الوقائع والأخبار إلا بمقدار ما تؤدى أداءها فى هذا المقصد الذى لا مقصد لنا غيره، وهى قد تكبر أو تصغر فلا يهمنا منها الكبر والصغر إلا بذلك المقدار..

ومن همنا أن تكون الصورة صادقة كل الصدق فى جملتها وتفصيلها، فليس من غرضنا التجميل الذي يخرج بالصورة عن حقيقتها، ولسنا نريد أن يطلع القارئ على تلك الصورة فلا يعرفها، ولا يعرف أبا بكر منها، ولكن تجميل الصورة شيء

---

(٩) عبقرية الصديق ـ مقدمة الكتاب.





وتوقير صاحبها شىء آخر، فإنك إذا صورت أبا بكر، ورفعت صورته مكاناً عالياً، لم تكن أضفت إليه جمالا غير جماله، أو غيرت ملامحه النفسية بحيث تخفى على من يعرفها، فهذا التوقير الذى لا يخل بالصورة، ولا يعاب على المصور، وليس هو بالتجميل المصطنع الذى يضل الناظر عن الحقيقة».

وموضع الفصل الحاسم فى هذه القضية أن نطلب من هؤلاء الذين يزعمون أن العقاد قد جاوز الحقيقة إلى الخيال، أن يبرزوا لنا موقفا واحداً فى كتبه الإسلامية لم يكن واقعاً صريحاً لا لبس فيه، ولم تكن كتب السابقين قد تداولت تسجيله مؤرخاً عن مؤرخ، فإذا كان الأمر كذلك، ففيم اللجاج، من أقلام تدعى القيامة على النقد، وتخدع القارئ بالبهتان، لحاجة فى نفس يعقوب ؟.

وقد فهم بعض من يدعون القدرة على التفسير والتوجيه، أن العقاد يكتب فى تمجيد البطولة والأبطال، لخدمة اتجاه سياسى خاص يدور فى فلكه، ويتقدم هؤلاء خطوة أخرى فيزعمون أنه يريد بذلك محاربة الشيوعية التى تنكر دور الفرد وتوجه الاهتمام إلى المجتمع، والعقاد يحارب الشيوعية دون هوادة بما لاشك فيه، ولكنه يعتقد أن الشيوعية حين تلغى

دور الفرد لا تهتم بالفرد ولا بالمجتمع ! فالمجتمع الذى أوجدته فى مدى نصف قرن مجتمع خائف هائب مزعج لا يستطيع أن يتنفس، وللفرد دور فيه، ولكن أى فرد ؟ هو من يملك الحكم، أو يدور فى فلك من يملك من المقربين إلى رؤساء التنفيذ، أما ما عدا هؤلاء فهم الجمهرة المقهورون ! !

والعقاد أيضاً لا يدور فى فلك الغرب حين يكتب العبقريات اعترافاً بمكانة العظماء، لأنه يعلم أن الديمقراطية الغربية ذات عيوب بارزة، وأن المساواة لديها لا تتحقق على السنن المأمول لأن الحزب الحاكم يخضع لرئيس يوجه الأعضاء، ويكسب الأصوات بالدعاية والإعلام فى منهج تضل به الحقائق.

وإذن فالعقاد لا شرقى ولا غربى حين يكتب العبقريات، ولكنه مسلم آمن بعظمة نبى الإسلام وخلفائه عن بحث صارم وعزم جاد، وأمانة مطمئنة، فرأى أن يبرز مبررات هذا الإيمان فى خلال ما يكتب عن أبطال دينه ! وهذا ما أوقد اللهيب لدى الموتورين، وإنهم لكثير.

وقد تعود الذين يكتبون تاريخ الرجال أن يتشحوا بالعدالة حين يفردون بابين فى ما يكتبون، يتحدث أحدهما عن محاسن الإنسان وثانيهما عن مساوئه ويرون ذلك آية العصمة



والنزاهة وقد أشار العقاد إلى ذلك فى مقدمة كتابه (عبقرية عمر) فقال:

«فالناس قد تعودوا ممن يسمونهم بالكتاب المنصفين أن يحبذوا وينقدوا، وأن يقرنوا بين الثناء والملام، وأن يسترسلوا فى الحسنات بقدر، لينقلبوا من كل حسنة إلى عيب يكافئها، ويشفعوا كل فضيلة بنقيصة تعادلها، فإن لم يفعلوا ذلك، فهم إذن مظنة المغالاة والإعجاب المتميز، وهم إذن أقل من الكتاب المنصفين الذين يمدحون ويقدحون، ولا يعجبون إلا وهم متحفزون!!

عرض لى هذا الخاطر، فذكرت قصة العاهل الذى تحاكم إلى قاضيه مع بعض السوقة فى عقار يختلفان عليه، فحكم القاضى للسوقة بغير الحق ليغنم سمعة العدل فى محاسبة الملوك وعزله العاهل؛ لأنه ظلم، وهو يبتغى الرياء بظلمه، فكان أعدل عادل».

وليس معنى ذلك أن العقاد لم يخالف أحداً ممن تحدث عنه ـ حاشا رسول الله ـ فى موقف، بل إنه أبدى رأيه فى كل ما تعرض لتمحيصه من المواقف، وأعلن مخالفته فى أشياء لم تكن موضع ارتياحه، وننقل عن عبقرية خالد قوله الصريح عن موقف ابن

الوليد من مالك بن نويرة بعد أن عرض الكاتب الناقد الموضوع من كافة وجوهه عرضاً وافياً لا خفاء فيه ـ قال العقاد ـ [(١٠)] :

«وحسبنا من هذه الأقوال جميعها أن نقف منها على الثابت الذى لا نزاع فيه، والثابت الذى لا نزاع فيه، أن وجوب القتل لم يكن صريحاً قاطعاً في أمر مالك بن نويرة، وأن مالكا كان أحق بإرساله إلى الخليفة بين زعماء فزارة الذين أرسلهم خالد بعد موقعة البزاخة وأن خالداً تزوج امرأة مالك وتعلق بها، وأخذها معه إلى اليمامة بعد لقاء الخليفة.

وأوجب ما يوجبه الحق علينا بعد ثبوت ذلك كله أن نقول: إن موقعة البطاح صفحة فى تاريخ خالد كان خيراً له وأجمل لو أنها حذفت، ولم تكتب على قنول من جميع تلك الأقوال، لأنها لم تضف إلى فخاره العسكرى كثيراً ولا قليلاً، وأهدفته لملام أحمد ما يحمد منه أن له عذراً فيه يقبله أناس ولا يقبله آخرون، ويجب تقرير هذا عند تقدير خالد، لأنه الحق الذى لا يعلو على ميزانه ميزان، فى ترجيح الرجال والأعمال، ولأن الرجل الذى يخشى على قدره من تقرير أخطائه رجل لا

---

(١٠) عبقرية خالد من ١٤١ ط ١٩٧٠م.



يستحق أن يكتب له تاريخ، إذ معنى الخشية عليه من أخطائه أنه فقير من الحسنات والعظائم، وأنه من الفقر بحيث تعصف الأخطاء بعظائمه وحسناته، ولم يكن خالد بن الوليد كذلك».

وأجمل ما في العبقريات إفحام العقاد الملزم لمن يحاولون تشويه التاريخ الإسلامي في عهده الأول بمفتريات كاذبة.

يرددونها عن عمد مع وضوح بطلانها، ومع إيضاح وجه الحق في تفنيدها دون أن يستجيبوا لوضوحه.

وللعقاد في هذا المجال سطوع نفاذ واستطراد، وسطوع العقاد ونفاذه مما يعهده القارئ عنه في كل مجال، ولكن استطراده وتدفقه وانسيابه في مجال القمع الحاسم شيء حميد حقاً، لأن الاكتفاء باللمح الدال لا يسكت أفواها مغرضة تعودت على الصياح لجبة دون مبرر، ويزيد صياحها كلما كان معارضها رقيق الحاشية معتدل الإقناع، ولابد إذن من سيل جارف يقتلعها اقتلاعاً، ونمثل لذلك برده على الفرية الكاذبة التي زعمت وجود مؤامرة بين أبي بكر وعمر وأبي عبيدة عند وفاة رسول الله لتكون الخلافة من نصيب أبي بكر دون علي، فبعد أن أوضح أن الروايات التاريخية الموثوق بها لم تشر إلى شيء من ذلك. وأن خلائق

الأبطال الثلاثة كما يعهدها المسلمون بمنأى عن التآمر الموهوم، وأن منطق الأحداث ـ وقد شرحه العقاد شرحا وافيا ـ يدل على أن الأمر قد وقع منهم جميعاً موقف المفاجأة التى لم يتدبروها إلا بعد وقوعها، وأن أمارات استخلاف أبى بكر كانت ظاهرة من طلائعها الأولى قبل مرض رسول الله، ولم تكن هناك إشارة ما تدل على أنه ﷺ يريد أن تكون الخلافة فى بنى هاشم.

أقول: بعد أن أوضح العقاد ذلك كله فى اقتناع ملزم لا حيلة للمعارض فيه، استطرد استطرادا مكملا طريفا، وإنما نجعله استطرادا وهو من صميم الموضوع، لأن ما سبق به كان ذا غناء ملزم، ولكن الكاتب جاد به على القارئ مشبعا ممتعا مقنعا فقال متسائلا: (١١)

«كيف كانت الخلافة صائرة إلى غير ما صارت إليه وهى محصورة فى قريش؟ وإلى من كانت تصير؟ إن الذين تولوها بعد أبى بكر من صحابة النبى هم عمر وعثمان وعلى ومعاوية، فأى هؤلاء كان أظهر حقا، وأقرب طريقا،

---

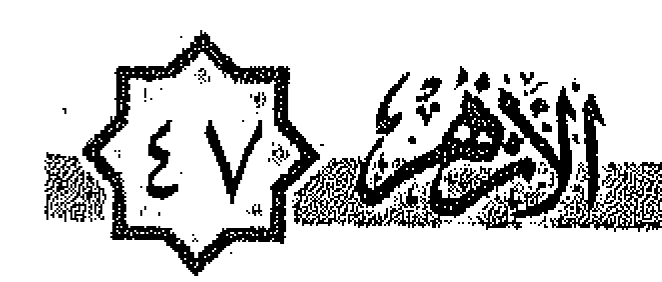
(١١) عبقرية الصديق ص٢٤ ط ١٩٦٥م.



وأدنى من الصديق إلى اتفاق المسلمين عليه ؟ أهو عمر ؟ لقد كان أصغر من أبى بكر بنحو عشر سنين ، ولم تكن له سابقته فى الإسلام وصحبته النبى ، ولم تكن ألفة الناس له كألفتهم لأبى بكر ، وليس هو بأقوى عصبية منه بين بطون قريش ، وليس هو بالذى يشغب على أبى بكر ويعصيه لطمع فى الخلافة إذا تقدم إليها ، بل كان هو الذى بايعه وحث الناس على بيعته.

أفكانت تصير إلى عثمان ؟ إن عثمان رضى الله عنه أسلم على يدى أبى بكر ، وقد كانت معه عصبية بنى أمية وهى عصبية قوية ، ولكن زعامة تلك العصبية كانت فى يد أبى سفيان يوم ذاك ، ولا طريق إلى الخلافة ، وإن طمع فيها ، وقد تنزه عثمان أن يركن إلى العصبية ، لينازع أبا بكر فى حق لا ينكره ولا ينفسه عليه.

أفكانت تصير إذن إلى على بن أبى طالب ؟ إنما كانت تصير إليه بحجة بنى هاشم ، وهى الحجة التى اتقاها النبى جهده كما قدمنا ، وكان بنو هاشم مع هذا لا يتفقون على اختيار واحد من رؤسائهم الثلاثة : العباس ، وعلى ، وأخيه عقيل ، ولم يكن على بعد هذا وذاك قد جاوز الثلاثين إلا



بسنوات قلائل، وهى عقبة من العقبات التى لا يسهل تذليلها فى أمة ترعى حق السن ومكانة الشيوخ إلا بوصية من النبى عليه السلام ـ ولم تكن هناك وصية من هذا القبيل كما اتفق عليه كل سند وثيق.

أفتكون إلى معاوية؟ إنه نفسه لم يدر بخلده أن يرشح نفسه فى تلك الآونة...» إلخ.

وأمثال هذا النقاش الملزم الطريف كثير فيما كتب الأستاذ العقاد عن الأعلام.

وبعد:

فقد كان اتجاه الكاتب الكبير فى مجال الحديث عن الإسلام متشعبا ممتد السبل والآفاق، وقد ألمعنا إلى أشد هذه الطرق وضوحا، وأكثرها اتساعا، حين أوجزنا الحديث فى هذا المجال، وقد بقى مجال كبير لاستدراك كثير مما لم نلم به، ولسنا فى مقام الاستقصاء،ولكننا نشيد بعبقرية كاتب إسلامى مناضل، دافع عن الحق بعيدا عن الغرض، ووقف فى الميدان فارسا معلما. ينازله مئات الخصوم فيبارزهم فى ثقة، ثم يعود مكللا بالنصر متوجا بالنجاح.

رضى الله عنه وأرضاه

د./ محمد رجب البيومى



أديان الدعوة (*)

من التقسيمات المتواترة عند علماء المقارنة بين الملل والعقائد تقسيم الأديان فى العالم إلى أديان دعوة، وأديان «مقفلة» أو محصورة فى بيئة خاصة، وأكبر أديان الدعوة عندهم فى العصر الحاضر ثلاثة: البوذية والمسيحية والإسلام، وأولها تنحصر الدعوة إليه فى التلمذة، ومصاحبة المريدين للأئمة والرؤساء فى الهياكل والصوامع ودور العبادة.

ظهرت فى العهد الأخير طبعة جديدة من كتاب «المطالعات فى الأديان العالمية» وجملتها أحد عشر دينا هى الهندوكية والشنتية واليهودية، والزردشتية أو المجوسية والطاوية، والكنفوشية، والجانية، والبوذية، والمسيحية والإسلام والسيخية ويقول الكتاب فى التمهيد للديانة الشنتية. Shintoism وهى ديانة أهل اليابان:

«إننا رأينا فى ختام الفصل السابق أن الهندوكية هى الديانة القومية العنصرية للهنود، وأنها تخصهم وحدهم وتخص بلادهم وحدها، وليس لها مؤسس معين معروف، بل

(*) نشر هذا المقال بمجلة الأزهر عام ١٣٨٠ هـ.



ترجع نشأتها إلى ما قبل التاريخ، فلنعلم أن الشنتية هى من هذا القبيل ديانة أهل اليابان، فهى مقصورة على اليابانيين لا يعرف لها مؤسس معين منذ نشأتها قبل التاريخ، وكلتا الديانتين لا عناية لها بالدعوة إلى الدخول فيها، فكل منهما تعبير طبيعى لشعب خاص، وجزء من ثقافة اجتماعية لا تتقبل الغرباء».

ويعود الكتاب فيقول تمهيداً للكتابة عن الديانة اليهودية: «إن ديانة اليهود أيضاً ذات ارتباط بشعب معين كما يؤخذ من تسميتها باليهودية أو العبرية، وهى لهذا تشبه الهندوكية والشنتية فى أنها ديانة مقفلة أى ليست من ديانات الدعوة، وإنما تختلف بأن الهندوكية والشنتية كلتاهما ديانة شعب مستقر فى وطنه منذ عهد بعيد، وأن اليهود تعرضوا للشتات غير مرة، فوقعوا فى أسر مصر وبابل وفقدوا وطنهم بعد أن استولى العاهل الرومانى (تيتوس) على أورشليم سنة سبعين للميلاد..».

ولما عرض الكتاب للدين الإسلامى قال: إنه دين دعوة وإنه لا يزال ينتشر فى القارة الإفريقية وبين الشعوب المتأخرة، ولكنه لم يحاول أن يبحث عن حقيقة الفارق بين أديان



الدعوة والأديان «المقفلة التى لا تعنى بإدخال الغرباء فى ملتها».. إلا فارقاً واحداً ذكره غير مرة وهو الفارق بين الدين الذى يعبر عن بيئة محدودة والدين الذى يسرى الإيمان به إلى أقطار لا تحدها المواضع الجغرافية أو الروابط العنصرية.

على أن الفارق الأصيل ظاهر، بل مفرط فى الظهور حتى ليكفى فى تلخيصه بضعة سطور غنية عن الإفاضة فى الشروح والإكثار من الأسانيد.

إن ديانات الدعوة مفهومة فى حالة واحدة وهى حالة الإيمان بالضمير الإنسانى واستعداد الإنسان فى مختلف البلدان والأجناس للإيمان بالتوحيد، ولا يتأتى أن ينتشر دين دعوة يعم الناس جميعاً قبل أن يفهم الناس أن الدين هداية يتقبلها كل من له عقل يعى وضمير يميز بين الخير والشر وبين العمل الصالح والعمل الطالح بمعزل عن الحدود الجغرافية وحدود العنصر والنسب وأصول الأسلاف.

فالدين عند أصحاب الملل التى تدعو إليه عقيدة إنسانية تقوم على التوحيد وليس بصبغة محلية محدودة، ولا بفريضة سياسية تمليها السلطة الحاكمة، ويخضع لها الرعايا المحكومون.



هذا الفارق في تطور الإنسانية واضح جداً لو شاء علماء المقارنة بين الأديان أن يستوضحوه، ولكنهم لا يشاءون ولا يحبون أن يشاءوا مختارين، لأن النتيجة المحتومة لو نظروا إلى هذا الفارق أن يرفعوا الإسلام إلى القمة العليا بين العقائد الدينية، وأن يمتنع عليهم تعليل انتشاره بموافقته للشعوب المتأخرة كما يقولون كلما عرضوا لمسألة الدعوة والشيوع.

فالإسلام قد جاء للناس بعد أن بلغوا من التطور في فهم الدين حد التمييز بين هداية الضمير وبين فواصل الأمكنة والأنساب، فعرفوا أن «الحق الإلهي» محصول روحاني وليس بالمحصول الأرضي الذي يرتبط بالتربة كما ترتبط محاصيل الزروع والضروع.

وآية الإعجاز في هذا «التطور» أن يطلع على العالم من بلاد العصبيات والأنساب، وأن تكون له آيات بينات في الإيمان بالعقيدة الإلهية، والإيمان بالنبوة، والإيمان بضمير الإنسان.

فالله في الإسلام هو «رب العالمين» يتساوى عنده الناس ولا يتفاضلون بغير العمل الصالح.

والنبي في الإسلام هو المبشر بالهدى والمنذر بالضلال،



وليس هو بالمنجم الذى يكشف الطوالع والأسرار ولا بصاحب الخوارق، والأعاجيب التى تشل العقول وتهول الضمائر وتخاطب الناس من حيث يخافون ويعجزون ولا تخاطبهم من حيث يعقلون ويتأملون ويقدرون على التمييز.

والإنسان فى الإسلام مخلوق عاقل ذو ضمير مسئول يحاسب على عمله ولا تلحق به جريرة قبل مولده، وبعد انقضاء حياته.

ولا حاجة إلى الإطالة فى المقابلة بين الأديان ليعلم المطلع عليها من قريب أن هدف العقيدة فى الله وفى النبوة وفى الضمير الإنسانى هى غاية التقدم الذى ارتقى إليه الناس، بعد الديانات الجغرافية والديانات العنصرية، والديانات التى تنحصر فى بيئة ضيقة، أو واسعة، ولكنها لا تحيط بجميع بنى الإنسان.

ولم يتهيأ بنو آدم وحواء لهذه المرتبة من مراتب الإيمان إلا بعد أطوار بعيدة يعجب لها العقل الإنسانى كلما نظر إليها اليوم. كما يعجب لكل ماض درج عليه الأولون وطال بهم عهده. وهو فى رأيهم الآن لم يكن ليحتمل البقاء بضع سنين لو حكموا عليه يومئذ كما يحكمون عليه الآن.



فقد خطر لبعض بنى آدم قديماً أنهم وحدهم أصحاب الحظوة عند الله وأن أضعاف أضعافهم من بنى آدم الآخرين ملعونون محرومون !

وقد خطر لبعض بنى آدم قديماً أنهم ضائعون صالحين أو غير صالحين، وأنهم كتب عليهم الموت لأنهم هالكون ولأنهم يولدون.

وقد كانت الأديان يومئذ لا تحتمل الدعوة ولا معنى للدعوة عند أصحابها لأن الدعوة إنما تكون للهداية الممكنة وللضمير الذى يقدر عليها ولا تكون مع «الاحتكار» والاستئثار، فى حدود ترسمها الجبال والبحار، أو ترسمها سجلات الأنساب والآثار.

وها هنا مفترق الطريق التى سلكها الإسلام بالعالم الإنسانى. وكان من أجل هذا دين دعوة تهدى إلى ذلك الطريق.

ويتصل بأمر الدعوة كل مبحث يتناول عدد المسلمين فى العالم وتاريخ الدعوة إلى الإسلام فى الأزمنة الماضية وفى الزمن الحاضر، كما يتصل بأمر الدعوة كل مبحث يتناول صلاح الإسلام للشيوع والإقناع وما ينتظر من زيادة عدد



المسلمين فى المستقبل بمختلف الوسائل التى تنتشر بها الأديان فى سائر الأزمان.

ولا يخفى على قارئ يطلع على هذه المباحث أن يلاحظ نفور أصحاب الإحصاءات من زيادة عدد المسلمين وإسراعهم إلى قبول التقديرات التى تزيد فى عدد أبناء الملل من غير المسلمين مع تحفظهم الشديد فى قبول التقديرات التى تكثر من عدد الداخلين فى الإسلام قديماً وحديثاً، ولا يشذون عن هذه القاعدة إلا إذا تعمدوا التهويل والتنبيه إلى خطر انتشار الإسلام فى المستقبل وضرورة المبادرة إلى اتخاذ الحيطة لهذا الخطر بوسائل التبشير والضغط السياسى أو الاقتصادى، حيث يستطاع الاعتماد على هذه الوسائل بغير التجاء إلى المجاهرة بالعدوان.

وقد قرأنا فى مطلع القرن العشرين أن عدة المسلمين فى العالم مائة مليون، وقيل فى بعض الإحصاءات المتأخرة أن عدد المسلمين فى الصين لا يزيد على عشرة ملايين، ويقول الكتاب الذى نحن بصدده إن عددهم اليوم نحو ثلثمائة مليون، ولكنه لا ينزل بعدد البوذيين عن خمسمائة وعشرين مليونا مع صعوبة التفرقة فى الإحصاءات العامة بين الطوائف

البرهمية وبين البوذية فى الصين والتبت واليابان وبين البوذية على تعدد فروعها فى الهند الشمالية والهند الجنوبية. وممن لاحظ تلك الأخطاء المعتمدة فى إحصاء المسلمين الأمير شكيب أرسلان صاحب التعليقات على كتاب حاضر العالم الإسلامى فقال فى باب إحصاء المسلمين: «أما مسلمو الصين فلا تزال الأقوال متضاربة فى عددهم. فمن الجغرافيين من يحزرهم بعشرين مليونا ومنهم من يحزرهم بأكثر من ذلك بكثير، وفى هذه الأيام لما و قعت الفتنة بين الصين واليابان من أجل منشورية أبرقت الجمعية الإسلامية فى الصين إلى أوروبا بتلغراف احتجاج قالوا فيه: إنهم يتكلمون باسم خمسين مليونا من مسلمى الصين، ثم ورد تلغراف من طوكيو يرد على مسلمى الصين زاعما أنهم خمسة عشر مليونا لا خمسون مليونا، وفيه أن فى منشورية مليونين من المسلمين ينزعون إلى تحرير منشورية، ومما لاشك فيه أن التلغراف اليابانى بخس مسلمى الصين عددهم بما رأى من شدتهم على اليابان».

ثم قال: «ولقد حزرنا عدد المسلمين فى العالم فى مجلتنا الأمة العربية التى نصدرها أنا وسعادة أخى إحسان بك



الجابرى فى جنيف . . وذلك بنحو من ثلثمائة وثلاثين مليونا . هذا على تقديرات مسلمى الصين عشرون مليونا فقط . أما إذا ثبت أنهم خمسون مليونا فيكون المسلمون ٣٧٠ مليون نسمة ، وتفصيلها هكذا : الجزيرة العربية ١٢ مليونا ، سورية ٣ ملايين ، وفلسطين وشرقى الأردن مليون ، والعراق ثلاثة ملايين ونصف ، وتركيا أربعة عشر مليونا ، وإيران عشرة ملايين ، وأفغانستان تسعة ملايين ، والهند الإنجليزية ثمانية وسبعون مليونا والصين عشرون مليونا وسيام نصف مليون والروسية الآسيوية خمسة وعشرون مليونا . فهذه ١٧٦ مليونا فى آسيا ، والروسية الأوروبية قازان والقريم أربعة ملايين ولتوانيا وبولونيا عشرون ألف نسمة ويوغسلافيا مليون ومائتان وخمسون ألفا ، والمجر ثلاثة آلاف ، ورومانيا مائتان وخمسون ألفا وبلغاريا نصف مليون ، وبلاد اليونان مائة ألف ، وألبانيا تسعمائة ألف ، فهذه سبعة ملايين وثلاثة وعشرون ألفا .

«ومصر مع سودانها ١٨ مليونا ، وطرابلس سبعمائة ألف ، وتونس مليونان ، والجزائر خمسة ملايين ، ومراكش ثمانية ملايين ، والصحراء الكبرى ثلاثة ملايين ، والحبشة ثلاثة

ملايين، والغالا والصومال ستة ملايين، وشرقى إفريقيا - زنجبار وسواحلها ودار السلام - ستة ملايين، والكونغو والأوغندة مليون، والإدامو والكمرون مليونان، وغينيا وفوتاجلون مليون، والسنغال مليون، وسلطنة سوكوتو خمسة ملايين وبرنو خمسة ملايين ووادای خمسة ملايين، وكانم مائة ألف، فهذه واحد وسبعون مليونا و ٨٠٠ ألف فى أفريقية، والمستعمرات الهولندية أربعة وستون مليونا، والفليبين مليونان - فهذه ستة وستون مليونا فى البحر المحيط الباسفيك. فيكون جملة المسلمين ثمانمائة وثلاثة وعشرين ألفا وثلاثمائة وعشرين مليونا أما إن صح أن المسلمين فى الصين خمسون مليونا فيكون الجميع وثلاثمائة وسبعين مليونا وثمانمائة وثلاثة وعشرين ألفا، هذا بالتقريب».

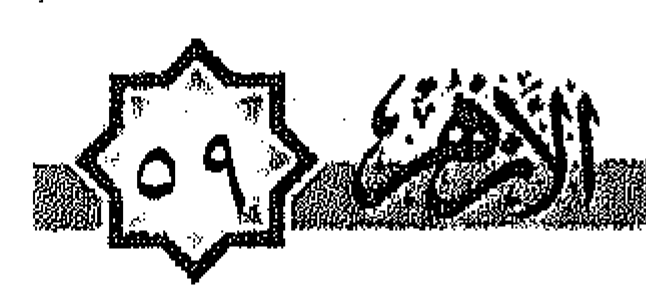
ومن المحقق بعد مراجعة هذه التقديرات أن العدد الذى أثبته الأمير شكيب أرسلان فى تعليقاته ينقص عن العدد الصحيح بكثير، لأن المقارنة بين تقديراته عند كتابة تعليقاته وبين الواقع فى الوقت الحاضر ممكنة على وجه الرجحان إن لم نقل على وجه اليقين.

فالمسلمون فى الباكستان والهند يزيدون على مائة مليون



والمسلمون فى أندونيسية وسائر البلاد التى كانت تابعة لهولندة يقاربون هذا العدد، وفى وادى النيل ما يزيد على ثلاثين مليونا عدا غيرهم من المتوسطين بين الوادى وشواطئ البحر الأحمر، وأبناء البلاد العربية فى القارة الآسيوية يزيدون اليوم على ذلك التقدير بنحو عشرة ملايين، فلا مبالغة إذا قدرنا عدد المسلمين اليوم فى العالم بأربعمائة وخمسين مليوناً وأيقنا على الدوام بأن عددهم يزيد فى كل حقبة على كل تقدير أوروبى يذيعه الساسة والباحثون فى شئون الدعوات الدينية، وأن زيادة هذا العدد مستمرة يقابلها أولئك الساسة والباحثون بالحذر ويذكرونها منذرين لأقوامهم بما يستفزهم إلى الحيطة ومقاومة هذا الازدياد المستمر، حيث تستطاع المقاومة فى الخفاء وفى العلانية إن لم يكن لهم بد منها.

ونرجع إلى أديان الدعوة لنقول: إن الإحصاءات الحديثة تحصرها فى ثلاثة أديان كبرى: وهى البوذية وعدة أتباعها على قولهم خمسمائة وعشرون مليوناً، والمسيحية وعدة أتباعها خمسمائة مليون، والإسلام ويختلفون فى عدة أتباعه بين ثلثمائة مليون على التقدير الأقل وأربعمائة مليون أو



يزيدون على التقدير الراجح الموافق لأحدث الإحصاءات.

أما البوذية فلا ننظر إليها بكثير ولا قليل من الحذر، لأن دعوتها محصورة فيها لتحويل أتباعها من النحل البرهمية الأخرى بوسائل التعليم التى قلما يبلغ متناولها الألوف، فضلاً عن الملايين، ولم يحدث فى تاريخها القريب أنها حولت إليها أناساً من أبناء الديانات الكبرى، بل حدث أحياناً كثيرة أن أتباعها يتحولون عنها إلى الإسلام أو المسيحية أو الجانية التى تلغى تعدد الطبقات وتناسب التفكير العصرى فى أطوار السياسة والاجتماع وفى العلاقات الدولية بين الشعوب والأقوام.

أما نظرة الحذر فهى ديدن المشتغلين بالتبشير والاستعمار كلما نظروا إلى شيوع الدعوة الإسلامية وسهولة انتشارها بالإقناع والقدوة مع اطراد عدد المسلمين فى الزيادة بازدياد النسل من حقبة إلى حقبة. كما يرى من الفارق بين عدد المسلمين فى أواخر القرن التاسع عشر وعددهم فى منتصف هذا القرن العشرين.

وإذا خصصنا المبشرين والمستعمرين بالذكر فى نظرتهم إلى أديان الدعوة وإلى الدين الإسلامى منها على التخصيص فلا ينبغى أن ننسى أولئك الباحثين فى حقائق الدعوات الدينية



على التعميم، فإنهم لو أخلصوا البحث للعلم والحقيقية لما فاتهم عند المقابلة بين أديان الدعوة والأديان المقفلة المحدودة أن يقرروا النتيجة العلمية التى يخلصون إليها من مباحثهم جلية واضحة لا تخفى على طالبها، ولكنهم لا يطلبونها ولا يستريحون إليها، لأنها تبشرهم أن انتقال الأديان من الملل العنصرية إلى ملل الدعوة ظاهرة تدل على الانتقال من العقائد الجغرافية المحلية إلى عقائد الضمير الإنساني وعقائد التنزيه والتوحيد، وأن الإسلام قد ارتفع بالضمير والتوحيد إلى أعلى مرتقاهما بما يهدى إليه فى العقيدة الإلهية وفى رسالة النبوية وفى الإيمان يرشد الضمير الإنسانى الذى يسأل عن عمله ولا يحمل وازرة غير وزره، وليس فهم التطور فى أديان الدعوة على هذا الوجه مطلبا يسعى إليه من يريدون أن يعللوا شيوع الإسلام فلا يستريحون إلى علة غير ما يزعمونه فى موافقته للأمم المتخلفة، ولولا أنها علة تريحهم وتلائمهم لكان أقرب منها إلى مشاهدات الحس ـ فضلاً عن تفكير العقل ـ إن الإسلام حقيق بالانتشار والإقناع لأنه خاتمة التطور فى أديان الدعوة وفى أحوال العالم الإنسانى بعد أن بلغ إلى مرحلة الوحدة الإنسانية ومرتبة الهداية المطلقة المتحررة من حدود الأقاليم والأنساب.

الشرق الأوسط فى العصر الإسلامى لمؤلفه سدنى فيشر Sydney Fisher(*)

كتاب فى نحو سبعمائة صفحة، موضوعه تاريخ بلاد الشرق الأوسط، وتاريخ العوامل الفعالة التى يرجع إليها تطور الشعوب والحوادث فى هذه البلاد، وأولها الإسلام.

ومؤلف الكتاب هو الدكتور سدنى فيشر أستاذ التاريخ بجامعة «أوهيو» الأمريكية وصاحب الدراسات المتعددة فى شئون البلاد الشرقية التى يدين الأكثرون من أبنائها بالديانة الإسلامية.

ويدل أسلوبه فى عرض الآراء والوقائع على تورع عن العصبية واجتناب للتشهير. فهو يروى ما يفهمه من المصادر المتناقضة ويحاول أن يجردها من نزعات الأهواء ودسائس الأحقاد المذهبية والقومية، وإذا وقع فى الخطأ المتواتر فإنما يقع فيه لأنه فى حكم الحقائق المجمع عليها بين المؤرخين، فلا ينساق إلى الخطأ حبا لترديده ومرضاة لشهوة من شهوات

(*) نشر هذا المقال بمجلة الأزهر عام ١٣٨٠ هـ.



الحفيظة فى نفسه، ومعظم أخطائه من قبيل المطاوعة لحركة التواتر المطبق الذى يحتاج إلى الجهد الجهيد لمقاومته.

وربما شق عليه هذا الجهد الجهيد فلم يتكلف له ما هو أهله من الصبر والدأب والارتفاع بالتاريخ فوق حجاب الحوائل التى تغطى ما وراءها من الأسانيد البينة، وإنها لبينة جدا لو استطاع الناظر إلى تلك الحوائل أن يتخذ له منفذا منها إلى الحقيقة.

يقول فى كلامه على صفة الإله: إن الوحدانية المنزهة هى أجل مطالب الإيمان عند النبى عليه السلام، ويوصف الإله مع الوحدانية بصفات العلم المحيط والقدرة المحيطة والرحمة والكرم والغفران.

ولا يستطرد المؤلف إلى شرح الصفات الإلهية قبل أن يقول: إن توكيد صفات البأس والجبروت فى كتاب الإسلام إنما تقدم فى أوائل الدعوة التى واجه بها النبى جماعة الكفار الملحدين من الملأ المكى المتغطرس المستطيل بالجاه والعزة، ولكن المسلم يعلم من صفات الله أنه واسع الرحمة وأنه أقرب إلى الإنسان من حبل وريده، وأنه هو نور السموات والأرض، وهى الصفة التى بثت عقائد «الصوفية» بين

المسلمين وكان لها أبعد الأثر فى اجتذاب العقول إلى معانيه الخفية .

ويقول المؤلف كما يقول غيره من كتاب العصر الغربيين : إن القرآن «صوت حى» ، يروع فؤاد العربى وتزداد روعته حين يتلى عليه بصوت مسموع ، ولكنه لا يفهم هذه الروعة كما لم يفهمها زملاؤه الذين سبقوه إلى الاعتراف ببلاغة القرآن اعتمادا على أثره البليغ فى قلوب قرائه وسامعيه ثم يقفون عند تقرير هذه البلاغة بشهادة السماع .

وبعد بيان مجمل عن بلاغة القرآن وأحكامه وعباداته يضيف المؤلف بيانا آخر فى مثل هذا الإجمال عن الفضائل الإسلامية التى احتواها الكتاب فيقول ما فحواه : إنه كتاب تربية وتثقيف ، وليس كل ما فيه كلاما عن الفرائض والشعائر ، وإن الفضائل التى يحث عليها المسلمين من أجمل الفضائل وأرجحها فى موازين الأخلاق ، وتتجلى هداية الكتاب فى نواهيه كما تتجلى فى أوامره فلا يجوز للمسلم أن يشرب الخمر ولا أن يقامر ولا أن يعتدى ولا أن يستسلم للترف والرذيلة ، ثم يختم كلماته قائلا : «إننا إذا نظرنا إلى مجال الإسلام الواسع فى شئون العقائد الدينية والواجبات

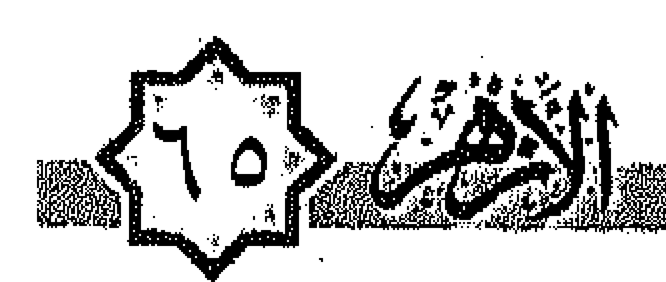


الدينية والفضائل الدينية لم يكن فى وسع أحد إلا أن يعتبر محمدا ـ عليه السلام ـ نبيا مفلحا جدا ومصلحا موفقا ، لأنه كما قال بعض الكتاب وجد مكة بلدة مادية تجارية تغلب عليها شهوة الكسب المباح وغير المباح ويمتلئ فراغ أهلها بمعاقرة الخمر والمقامرة ـ والفحشاء ـ ويعامل فيها الأرامل واليتامى وسائر الضعفاء كأنهم من سقط المتاع ، فإذا بمحمد ـ عليه السلام ـ وهو فقير من كل ما يعتز به الملأ قد جاءهم بالهداية إلى الله وإلى سبل الخلاص وغير مقاييس الأخلاق والآداب فى أرجاء البلاد العربية» .

***

إلا أن الخطأ المتواتر يتسلل إلى هذا الكتاب ، وإلى سائر الكتب التى فى موضوعه . من مجاراة العرف وإحجام العقول عن اختراق الحجب المتكاثفة مع الزمن حتى لا يحسب أحد أنه بحاجة إلى اختراقها ، ولعله لا يرتاب فى قدرته على اختراقها لو أنه قد خطر له أنها تستر وراءها ما هو حقيق بالنفاذ إليه .

وشفيع المؤلف فى هذا الكسل ، أو هذا الاستسلام العقلى ، أنه ينساق إلى تلك الأخطاء المتواترة فى كلامه على المسيحية



وعلى الإسلام بغير تفرقة بين ديانته التى يؤمن بها والديانة التى يفهمها من مصادره الغربية أو مصادرها الشرقية الميسرة للغربيين.

يقول بعد الإشارة إلى بعض المشابهات بين آيات القرآن وآيات الزبور على حسب فهمه: «والواقع أن اليهودية وفرعيها المنبثقين منها ـ المسيحية والإسلام ـ مشتركات فى كثير من الأمور وإن كان معظم التشابه فى العبارة دون الجوهر والمعنى».

هذا الخطأ المتواتر هو الذى يعنينا فى هذا المقال من موضوعات ذلك الكتاب، لأنه واجب التصحيح، وسهل التصحيح، مع إطباقه على أذهان المؤرخين الغربيين ذلك الاطباق الذى يوشك أن يشل تلك الأذهان عن الحركة المهيأة فى غير هذا الموضوع.

وأساس الخطأ كله اعتقادهم أن اليهود هم مصدر العقائد الدينية التى احتوتها التوراة، وأنهم هم الذين تلقوا وحيها لأول مرة من أنبيائهم غير مسبوقين إليها فيما سلف.. وقد سلف قبلهم، وفى عهود أنبيائهم، كثير من الرسالات والعقائد مذكورة أو ملحوظة فى القرآن الكريم وليس لها



ذكر فى أسفار التوراة.

والأمر لا يحتاج إلى عناء لإظهار وجوه الخطأ فيه، فإن مراجعة التوراة أيسر مراجعة ترينا أن اليهود تلقوا أهم العقائد الكونية وأهم التعاليم الشرعية ممن تقدم أنبياءهم فى الزمن، بل من الشعوب التى عاشوا بينها وكان فيها أناس من أتباع الرسل الأقدمين.

فإلى أى نبى من أنبياء بنى إسرائيل يسند اليهود عقائدهم فى سفر التكوين وهو جماع عقائدهم الكونية؟

إن التوراة الباقية إلى اليوم تبتدىء، بسفر التكوين ولا تسنده أحد من أنبياء بنى إسرائيل، ولا حاجة بعد ذلك إلى القول بأن عقائده سابقة للنبوءات الإسرائيلية وأن اليهود تعلموه من حيث يستطيع كل من شاء أن يتعلمه أو ينقله عن مصادره الأولى، سواء كانت من وحى الأنبياء الأسبقين أو من تراث الشعوب الموروث عن الأسلاف.

وتأتى أسفار الشريعة بعد سفر التكوين وليس منها ما هو مسند إلى نبى قبل موسى عليه السلام، ولكننا نقرأ فى هذه الأسفار أن الكليم كان يتعلم التبليغ من نبى عربى تسميه التوراة يثرون، فيقول الإصحاح الرابع من سفر الخروج إنه:

«رجع إلى يثرون وقال له : أنا أذهب وأرجع إلى أخوتى فى مصر» .

ويقول الإصحاح الثانى عشر إن يثرون كان يصلى ببنى إسرائيل فى عهد موسى ومنهم أخوه هارون : «وإن يثرون أخذ محرقة وذبائح لله ، وجاء هارون وجميع شيوخ إسرائيل ليأكلوا طعاما مع حمى موسى أمام الله» . . فقد كان يثرون ـ إذن ـ يقرب القرابين ، ويقيم الشعائر ، ويدعو الله بدعائه الذى دان به قبل بعثة الكليم ، ويتبعه موسى وهارون وشيوخ إسرائيل وصفوة الشعب الإسرائيلى أجمعين .

فأعجب العجب بعد ذلك أن يقرأ المؤرخون هذا فى كتب التوراة ثم يلج بهم الإصرار على أصالة اليهودية ، واعتبار المسيحية والإسلام فرعين من هذه الشجرة لا ينبتان على غير جذورها ، وهى كما رأينا فرع من أصل قديم بل فى عدة أصول .

على أننا نرجع إلى العقائد الإسلامية فلا نرى بينها عقيدة واحدة تتفرع على عقائد اليهود ، كما دانوا بها من قبل ، ويدينون بها إلى هذه الأيام .

وليس أبعد من الفارق بين العقائد الإسلامية والعقائد



اليهودية كما تناقلوها عن التوراة والتلمود فى كل أصل من أصول الإيمان عن الله أو عن النبوة أو عن الحساب والعقاب.

إن الله عند بنى إسرائيل إله قبيلة واحدة يختصها بحظوته، ولكن الله فى الإسلام هو إله الخلق أجمعين لا يفضل أحدا منهم على أحد بغير التقوى والصلاح.

وإن النبوة عند بني إسرائيل صناعة خوارق وكشف عن الخفايا والمفقودات، ولكن النبوة فى الإسلام رسالة هداية وتعليم، وبلاغ إلى العقل والضمير، يقنع الناس بالبينات والآيات ولا يجعل الإقناع موكولا إلى التهويل بالخوارق والمعجزات.

وإن الحساب عند بنى إسرائيل يأخذ الأبناء بذنب الآباء ويلحق الجزاء بالخلف البعيد انتقاما من جنايات الأجداد والأسلاف، ولكن الحساب في الإسلام لا يأخذ إنسانا بجريرة إنسان ولا تزر وازرة وزر أخرى.

وليس فى الإسلام سلطان للمعبد وكهانة على العباد الذين يصلون إليه فى كل مكان تحت السماء ويعلمون أنهم أينما كانوا فثم وجه الله، ولكن «الهيكل» فى اليهودية هو الذى يتقبل القربان من عباده فلا يحسب لهم قربان بغير وساطة



الكهان والأحبار.

فكيف تكون هذه العقائد فرعا على تلك الشجرة وهى تخالفها تلك المخالفة فى أصول الديانة وحقائق الإيمان بالربوبية والنبوة وموازين الحساب والتكليف وحرمات العبادة والتقديس.

إن جاز التشبيه بالأصول والفروع فقد يجوز أن يقال إن الإسلام شجرة أخرى تحمل الثمرات التى حملتها اليهودية بعد تهذيب وتجويد، وإن ثمرات الشجرة الإسلامية لا تحملها تلك الشجرة ولا يتأتى أن تحل فيها محل الفروع من الجذور.

ولكن لا يجوز أن يقال إن اليهودية كانت جذرا أصيلا للعقائد الإسلامية ولو كانت هى المصدر الوحيد للعقائد المشتركة بين الديانتين، فإذا علمنا أنها قد تفرعت على ما تقدمها ولم تكن جذرا لما تلاها فلا ندرى ما هو وجه التأصيل هنا والتفريع بأى معنى من معانى الأصول أو معانى الفروع.

وهذه هى طبيعة الأخطاء المتواترة فى بقائها وإطباقها على العقول، وهى كذلك طبيعتها فى سهولة الاهتداء إلى موضع الشبهة منها إذا أعيدت إلى طبقتها الأولى، ولا داعية إلى الإمعان فى العودة إلى ما هو أبعد من الصفحات الأولى فى



أسفار التوراة.

إن المؤرخ الغربى، وهو على اعتقاده الدينى لا يطالب بإيمان المسلم فيما اعتقد من ربوبية أو نبوة أو تكليف، ولكنه مطالب عند البحث فى التطور الطبيعى أن يمسك عليه عقله وأن يترفع به عن قبول الباطل البين فى جلائل المسائل، وهى مسألة العقيدة والإيمان.

وليس من الحلال فى شرعة العقل، كائنا ما كان دين العقل، أن يقيم الشجرة الباسقة على منبت الفرع المبتور.



عقيدة الذات الإلهية فى الإسلام(*)

ورد البحث فى عقيدة الذات الإلهية عند أمم العالم خلال كتاب مطول ألفه الأستاذ نورثروب Northrop وجعل عنوانه ملتقى الشرق والغرب The meeting of east and west متحريا فيه تقريب وجهات النظر فى المسائل الجوهرية المختلف عليها بين أمم الحضارة العصرية وأمم الحضارات الموروثة.

ويرى من عنوان الكتاب أنه مقصور على الملاقاة بين الشرق والغرب جملة واحدة من وجهة عامة، ولكنه عند تفرع البحث يتحقق من صعوبة هذه الملاقاة قبل الملاقاة بين أمم المغرب على حدة. وأمم المشرق على حدة فى أمور كثيرة تمتزج بتلك المسائل الجوهرية. فلابد قبل الملاقاة بين الشرق والغرب من التوفيق بين الحضارتين اللاتينية والسكسونية فى القارة الأوروبية. ولابد بعد ذلك من التوفيق بين قوى التفكير الديمقراطي وقواعد التفكير المطلق بين أمم تلك القارة. ولا غنى فى هذه الحالة عن التوفيق بين وجهات الاعتقاد

(*) نشر هذا المقال بمجلة الأزهر عام ١٣٨٠ هـ.



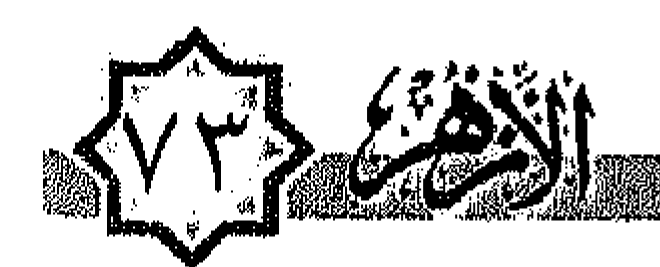
والتفكير منذ القرون وبين هذه الوجهات منذ أوائل العصر الحديث، مع التناقض بينهما من بعض جوانبها والتشابه بينها من الجوانب الأخرى.

ولكن هذه الفوارق جميعاً تنتهى عند المؤلف إلى فارق أساسى واحد: وهو فارق الإيمان بالربوبية فى ذات إلهية والإيمان بها فى معنى بغير ذات، كالمعنى الذى يقول إنه متمثل فى العقائد البرهمية الأولى.

ويحسب المؤلف أن الإيمان بالربوبية فى ذات إلهية من شأنه أن يدفع الأمم إلى طلب الغلبة على غيرها، وأن طلب الغلبة ليس بالشعور الأصيل عند المؤمنين بالربوبية فى معنى ليست له ذات قائمة تريد وتتفرد بالسلطان المطلق فى الوجود كله منذ القدم، فإن نزعت الأمم إلى طلب الغلبة لم يكن منزعها هذا من قبل العقيدة الدينية، بل يعرض لها من قبل الدوافع الحيوية الأخرى أو البواعث السياسية.

والأمم التى تؤمن بالذات الإلهية هى عند المؤلف مجتمعة فى أتباع الديانات الأربعة الكبرى: وهى الموسوية والمسيحية والإسلام والشنتية Shintoism ديانة اليابان.

ويكاد المؤلف أن يجعل الإسلام قبل غيره مثالاً للديانات



التى تؤمن بالربوبية فى ذات إلهية، لأن إيمان المسلم لم تتم فيه الملاقاة بالروح العلمية التى تولدت مع الزمن من إخضاع الحقائق للتجارب الحسية كما حدث فى معظم الأمم الغربية، ولابد من تعديل هذه النظرة ليؤمن المسلم بالله على ضوء الأصول العلمية ولا يحتفظ بإيمانه كما كان فى عهد النبى محمد صلوات الله عليه.

ويتساءل قائلاً: هل من المعقول أن ينتظر من ثمانين مليون مسلم فى الهند على هذه العقيدة أن يلاقوا جيرانهم على وفاق يطول أمده لمجرد استقلال الهند عن سلطان الدولة البريطانية.؟

نقول: إن ضلال التفكير عند هذا المؤلف على سعة اطلاعه وكثرة شواهده يتراءى من ملاحظة واحدة يخرج بها القارئ من كتابه ولا يحتاج إلى سند غير الأسانيد التى اعتمد عليها.

فلو أن المؤلف حجب النتيجة التى وصل إليها عن القارئ ولم يصرح بها فى بحوثه المتتابعة مرة بعد مرة لجاز للقارئ أن يفهم أن صاحبنا ألف كتابه ليثبت أن العقيدة الإسلامية هى أصلح العقائد لإيمان الإنسان بالله فى عصر التجارب الحسية



والقوانين التى يسمونها أحياناً بالقوانين العلمية.

فلا نعرف ضلالاً فى التفكير يذهب بالإنسان من مقدماته إلى نقيضها المقابل لها فى الطرف الآخر. كما ذهب هذا المؤلف من مقدماته الطويلة إلى نتيجته المعكوسة.

وأول ما يؤخذ عليه أنه ظن أن الإيمان بالربوبية معنى بغير ذات فكرة مستطاعة فى الضمائر الإنسانية أياً كان تعبيرها عن تلك الفكرة بكلمات العبادة ومصطلحات الفلسفة.

فربما قال الفلاسفة الأقدمون من البراهمة أن الإله فكرة مجردة بغير ذات تقوم بها، ولكنهم لا يبدءون الكلام فى الخلق إلا ظهر من كلامهم أن هذا الإله ذات تريد وتقدر وتتقبل الأرواح المطيعة وترفض الأرواح العاصية، وتتجلى تارة على مثال الرب الخالق وتارة على مثال الرب الحافظ، وتارة على مثال الرب المهلك أو المبيد، وقد نقل عنهم أبو الريحان البيرونى الذى اطلع على كتبهم بلغتها القديمة تفصيلات عقائدهم فى الربوبية فأحسن نقلها كما ظهر بعد ذلك من ترجماتها إلى اللغات الأوروبية الحديثة بأقلام الثقات من علماء تلك اللغات هنودا وأوروبيين، ومما نقله عنهم أنهم يؤمنون بالإله برهمن ويعتقدون أنه المطلق الذى لا يوصف،

ولكنه يتجلى على أشكال من الآلهة والمخلوقات، وأن بشن Vishnu جعل نفسه أرضا وجعل نفسه ماء وجعلها ناراً وجعلها قلوباً تنبض فى صدور الأحياء.

فليس هناك من فارق بين أصحاب العبادات فى تحقيق الذات للمعنى الإلهى إلا أن الإسلام واضح متفق العقائد وأن القائلين بالمعنى الإلهى الذى لا تقوم به ذات مريدة يقررون بالرأى ما ينقضونه بالشرح والتفصيل.

فإذا انتهينا من الإيمان بالذات الإلهية إلى الاختلاف على صفاتها فالإسلام يعطينا الصفات التى توافق حاجة الضمير إلى الدين فى جميع العصور، وأخصها عصر القوانين العلمية بل عصر القوانين العلية، كما انتهت إليه عند أحدث المحدثين.

إن الضمير الإنسانى لا يطلب الإيمان ليتحول به مع كل تجربة علمية إلى معنى من المعانى الإلهية ملفق على قياسه ومنواله.

فليس من شئ يملأ العقل والضمير بالحيرة والاضطراب كما تملؤه تلك المقررات التى يلغى بعضها بعضا أو تتوقف صحة بعضها على صحة سواه، فكلها من المعارف المضافة أو المعارف النسبية التى لا يقوم عليها ركن ثابت من أركان الإيمان والثقة بالوجود المطلق والحياة السرمدية.



إن الضمير لم يذهب فى طريقه الطويل إلى الثقة بمعنى الوجود ليفسرها تارة بمذهب داروين وتارة بمذهب كوبرنيكس وحينا بمذهب كارل ماركس وحينا آخر بمذهب برجسون وسواهم ممن يتفلسفون أو يستخلصون القوانين العلمية والنواميس الطبيعية.

وفى هذا العصر - على التخصيص - قد ثبت للعلماء أن التجربة العلمية لا تستطيع أن تقرر قانوناً ينبئنا عن تصرف الكهرب كيف يكون فى اللحظة التالية. فهذا الجزء الصغير الذى تتألف منه المادة كلها وتترتب حركاتها جميعا على حركته داخل الذرة وخارجها مجهول الحركة كل الجهل. ولا يمكن الحكم عليه إلا على وجه التقريب قياساً على إحصاء المصادفات، وليس هناك من قانون على معروف غير المقابلة بين هذه المصادفات، وأخذها بالظن غداً كما أخذوها بالظن أمس وقبل أمس إلى نهاية الرصد المعلوم.

والعلماء القائلون بذلك أمثال أيسنر وهايزنبرج وشروونجر وغيرهم وغيرهم يضربون الأمثال لهذه القوانين الإحصائية ببعض المشاهدات اليومية التى تصور لنا كيف تتفق المصادفة مع التحقيق.

يقولون : مثلا إن شركة التأمين تستطيع أن تبنى حسابها وتنظم عملها وتجنى أرباحها من تقدير نسبة البيوت التى ستتعرض للحريق بواحد فى الألف من جملة البيوت ، ويصدق حسابها على وجه التقريب فيحترق أثناء السنة مائة بيت أو نحو ذلك ، ولكن هذه الشركة لو سئلت عن بيت واحد معين بين هذه البيوت لم تستطع أن تدل عليه قبل احتراقه . وهكذا يفعل العالم الطبيعى حين يقرر نسبة الكهارب التى ستتحول من جسم معلوم مع المؤثرات الطبيعية الخاضعة للرصد والإحصاء ، فإن ذلك الجسم يحتوى ملايين الملايين من الكهارب التى ترصد حركاتها على ذلك المقال فتعرف بالنتيجة النسبية ولا تعرف على التعيين والتحقيق فى كل واحد منها ، وتلك هى القوانين الطبيعية كما يفهمها أساطين العلوم الطبيعية فى هذا العصر الذى يظن الأستاذ نورثروب أنه جاء بالقوانين المصححة للدين - مصادفات نسجلها بموافقات الإحصاء على حسب العادة ، وليس فيها حقيقة واحدة تقيم الإيمان على قرار مكين ، وأين من طبيعة الإيمان قضية تقوم على مصادفات شركات التأمين ؟ .

وندع القوانين الطبيعية وننظر إلى القوانين الاجتماعية التى



يدعى لها أصحابها أنها محور التقدم والجمود فى حياة الشعوب.

منذ خمسين سنة كان الأكثرون بين أصحاب هذه القوانين ينعون على الإسلام أنه دين جمود لأنه يعوق المعاملات الاقتصادية ولا يسمح بتنظيم المصارف والشركات لتحريمه قروض الربا وإنكاره لكل ربا الجاهلية على كل صورة من صوره البينة أو الخفية (١٢).

فلم يمض جيل على هذه الصيحة حتى سمعنا أصحاب قوانين أخرى يصيحون بأن رأس المال كله نكبة على الإنسانية وعائق من عوائق الحرية الكريمة والعمل النافع.

فماذا ينفع الناس بين هذه القوانين من إله «نسبى» يتحول مع التجارب الحسية والفروض التى يسمونها بقوانين الطبيعة؟

إذا كان للناس أن يحسوا بالحاجة الخاصة إلى الإيمان بالربوبية فى ذات إلهية لها كمالها المطلق ومشيئتها الباقية فحاجتهم فى هذا العصر إلى تلك العقيدة أمس وأقوى من حاجتهم إليها فى عصر الدعوة المحمدية، لأن تزعزع الأساس

(١٢) انظر المجلد رقم ٣٢ من مجلة الأزهر ص٥٢٢ (بريد المجلة) فتوى فضيلة الأستاذ الأكبر «عن الدين».

الذى يسند قوانين العلوم الطبيعية لم يثبت ـ علميا ـ كما ثبت فى عصرنا هذا الموسوم بسِمة التحقيق والتقرير.

هنا يشعر الضمير الإنسانى بالحاجة إلى الإيمان بالكمال المطلق والحكمة الخالدة بين أشتات من المعارف والفروض كلها مضاف إلى غيره وبعضها ينقض بعضا فى مدى عمر الإنسان.

والإسلام يأذن للمسلم أن يبدل فروضه الحسية كيفما شاء وشاءت له تجارب الحس وضرورات الحياة الموقوته، ولكنه لا يأذن له ولا يضطره إلى تبديل إلهه كلما خرجت له تجربة جديدة من هذا المعمل أو ذاك وكلما قال قائل باسم العلم إنه يثبت هذا وينكر ذاك، وليس وراء كل ثابت ومنكر إلا قلق الضمير ثم اعتماده على الوجود المطلق بين هذه النسب والإضافات.

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾

(الإخلاص: ١، ٢)

﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾

(فصلت: ٥٤)

والله الذى يحيط بكل شيء، وبكل زمن، هو إله الإيمان، وطلبة الإنسان.



ديانات العالم السبع العظمى(*)

أحرى بهذا الكتاب أن يسمى معرضاً دينياً على الورق؛ لأنه يجمع أكثر من خمسين ومائتي صورة فنية لمناسك الأديان فى أنحاء العالم، حيث يقيم أتباع الديانات السبع المشهورة: وهى البرهمية والبوذية، ديانتا أهل الهند، والطاوية والكنفوشية ديانتا أهل الصين، والإسلام والمسيحية واليهودية.

ألف الكتاب لمجلة الحياة (LIFE) المصورة، طائفة من المتخصصين للمباحث الدينية، تناول كل منهم البحث فى ديانة يدرسها ويطلع على مراجعها، واستغرقت بحوثهم أكثر من سنتين، زيدت عليها تنقيحات وتصحيحات استغرقت بضعة أشهر، ثم ظهر الكتاب أخيراً على صورة طيبة فى شكله وموضوعه وجاءت فصوله التى كتبت عن الإسلام على أطيب ما ينتظر من الباحث غير المسلم حين يتصدى لكتابة عن هذا الدين وأهله فى معترك الخصومات السياسية والمذهبية التى تثير العداء له فى كثير من علاقاته بالدول والشعوب.

وأطيب ما فى تلك الفصول من هذه الوصية أن كاتبها

(*) نشر هذا المقال بمجلة الأزهر عام ١٣٨٠ هـ.

يورد الاعتراضات الشائعة عن الدين الإسلامى ويرد عليها أحياناً بما ينقضها ويجلو حقيقتها، ويوفق إلى الرأى الصواب فى معظم أقواله.

بدأ بقوله عن النبى ﷺ : إنه لا يسمى نفسه المخلص ولا يقول: إنه المسيح المنتظر، ولكنه بشر يبلغ الناس رسالته الإلهية، وليس فى نشأة هذا الدين غموض ولا مجال للخبط بالظنون، لأنه انبثق فى ضحوة التاريخ الساطعة وانتشر بين أمم الأرض بقوة الإعصار، وسر انتشاره ودوامه إنه عقيدة سهلة واضحة متمكنة فيما تثبته للناس من أصول الإيمان، وهو أكثر من دين شعائر وعبادات، لأنه إلى جانب ذلك، أدب حياة وشريعة سلوك تنظم معيشة الإنسان على مثال لا نظير له فى الحضارة الغربية.

ومن أسباب قوة هذا الدين أنه عند اتباعه الكلمة الأخيرة من وحى الله، وهو يتقبل الديانات الكتابية التى سبقته ولكنه يعلم أتباعه أنها اجتمعت صحيحة خالصة من الحواشى والأوشاب فى آيات القرآن، ولم ينشئ القرآن كهانة ولا مراسم هيكلية تلجئ المسلم إلى وساطة زمرة من الأحبار والرؤساء؛ لأن فرائضه المعروفة الواضحة بما يؤديه كل مسلم بينه وبين الله بغير حاجة إلى الوسطاء.





يقول كاتب فصول الإسلام فى الكتاب : إن بعض عادات العرف فى البلاد الإسلامية تحسب من دلائل الرجعية عند الغربيين، ولكن النبى نفسه رفع شأن المرأة ولم تكن قيودها الثقيلة مما يفرضه القرآن، وإنما جاءت من توليدات بعض المتأولين فى عصور النكسة والجحود، وقد أنكر الإسلام وأد البنات ووضع الحدود لتعدد الزوجات بعد أن كان مستباحاً فى أيام الجاهلية بغير حدود.

وتكلم المؤلف عن نحل الصوفية؛ فأشار إلى بعض نحلها التى يعترض عليها أهل السنة ثم قال : إن الصوفية انتعشت واستقامت بهداية الأفكار التى بثها الإمام الغزالى - وهو عبقرى دينى ولد بإحدى قرى فارس سنة ١٠٥٨ ميلادية - ويحسبه المسلمون اليوم فى عداد الأولياء القديسين، ويبلغ عدد المتصوفة بين المسلمين نحو ثلاثة فى المائة ينتمون إلى طرق متعددة مختلفة الدرجات.

ثم وصف الكاتب أذكار بعض الدراويش المنتسبين إلى الصوفية بصفات منكرة، يشاركه فى إنكارها جملة المسلمين، ولكنه عاد بأكثر التقاليد الصوفية إلى العادات المستعارة من غير المسلمين.



واستطرد إلى التبشير بالدين الإسلامي بين غير المسلمين فقال : إن الإسلام ، إلى زمن متأخر ، لم يكن له جماعات منظمة للتبشير ، لأن هذا الدين الذى جعل المسلم في غنى عن الوساطة بينه وبين ربه قد جعله كذلك داعياً إلى دينه ، حيث كان ، وإن لم تكن له جماعة ينتمي إليها ويتقيد بنظامها لنشر الدعوة ، إلا أن الدلائل تشير إلى عناية حديثة من جانب المسلمين بأنظمة التبشير المسيحية ، وقد أصبح الجامع الأزهر - ذلك المعقل الثقافي الذى صمد للتيارات الغربية وحال بين مؤثراتها وبين العالم الإسلامي - ينشط الآن لتدريب فئة قليلة من أبنائه كل سنة للعمل فى هذا الميدان ، ولاحت علامات النشاط لهذا العمل من جانب بعض النحل المتشعبة فى الإسلام ومنها نحلة الأحمدية التى تبعث الرسل إلى أوروبا والشرق الأقصى وأقطار إفريقية الشرقية .

قال الكاتب : إن فى القارة الأفريقية اليوم نحو ستين مليون مسلم من نيف ومائتى مليون عدة أبناء القارة وإذا تزاحم المبشرون من المسلمين والمسيحيين كسب التبشير الإسلامي عشرة كلما كسب التبشير المسيحى واحداً من الوثنيين ، ويشيع بين سكان أفريقية الغربية - ولا سيما نيجيريا - أن الإسلام دين



الرجل الأسود، وأن المسيحية دين الرجل الأبيض، وأجدر من ذلك بالالتفات أن المسلمين فى الهند وباكستان، حيث تزيد عدتهم على عدة إخوانهم فى كل مكان آخر قد تحول أكثرهم عن العقيدة، التى تقضى بنبذ بعض الطوائف إلى العقيدة التى تبسط سنة المساواة بين جميع المؤمنين، وهناك علامات شتى على أن الإسلام يتحرك من سباته الطويل، ففى كل أمة إسلامية دعوة إلى إحياء الإسلام سياسياً وروحياً وثقافياً بمختلف الأساليب، وقد أعيد بناء مئات من المساجد فى البلاد التركية بعد مصادرة أتاتورك للتعاليم الدينية وزادت نسبة الطلبة الدينيين فى إيران بمقدار أربعين فى المائة بين سنة ١٩٥١ وسنة ١٩٥٥، وتتراءى فى أفريقية الشمالية علامات من هذا القبيل، ولا يخلو بلد بين بلاد المسلمين اليوم من شعور بالقلق من جراء الاحتكاك الدائم بالحضارة الغربية.. وقديماً كان المسلمون يقابلون الحضارات المخالفة بقلة الاكتراث حيناً وبالنفور حيناً وبالانطواء فى جملة الأحيان.. أما فى الآونة الحاضرة - فالإسلام مجتهد فى التوفيق بينه وبين مستحدثات الحضارة - ولا يجمد على القديم المفقود غير العدد النزر من المتعصبين المتشبثين بالتقاليد المهجورة، وبين الفريقين طائفة ثالثة ترى أن إحياء الإسلام من داخله عمل

مستطاع للوقوف حيال الغرب موقف الأنداد الأكفاء، متعاونين على شرعة التعاون والاستقلال.

ويعرض المؤلف بعد ذلك للدور المنتظر من الإسلام بين الديمقراطية والشيوعية؛ لأنه وسط فى الموقع ووسط فى العقيدة ووسط فى المصلحة بين المعسكرين، ثم يؤكد قيام الفوارق بين مبادئ الثقافة الإسلامية ومبادئ الديمقراطية، ولكنه يخلط فى تقديره فيخيل إليه أن المسلم غير بعيد من الشيوعية إذا عز عليه أن يجد فى الديمقراطية رضاه.

ويختم كلمته عن الدعوة الإسلامية بقوله: لا ريب أن الوجهة التى سيتجه إليها الإسلام سيكون لها أثرها العميق فى مصير العالم الإنسانى، وتتوقف هذه الوجهة على مقدار نجاح المسلمين فى التوفيق بين عقيدتهم ومقتضيات الزمن والتاريخ، ومن ثم يدرك المسلمون أن قضيتهم العظمى هى قضية العقيدة الروحية ويذكرون كلمة النبى حين قال لأصحابه بعد مرجعهم من إحدى الوقائع: إنهم عادوا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، وهو جهاد الضمير.

ويلى هذا الفصل عن الدعوة صفحات من ترجمة القرآن الكريم، يخصصها الناقل للسور والآيات التى تعرف القراء





الأوروبيين بآداب الكتاب ووصاياه المميزة له بين وصايا الأديان الكتابية، ويغلب عليه في جملة ما ينقله أن ينحو بالمقارنة بينها جميعاً منحى الإنصاف ولا يتعمد فيها أن يبتر الشواهد للإيحاء بالمغامز والشبهات.

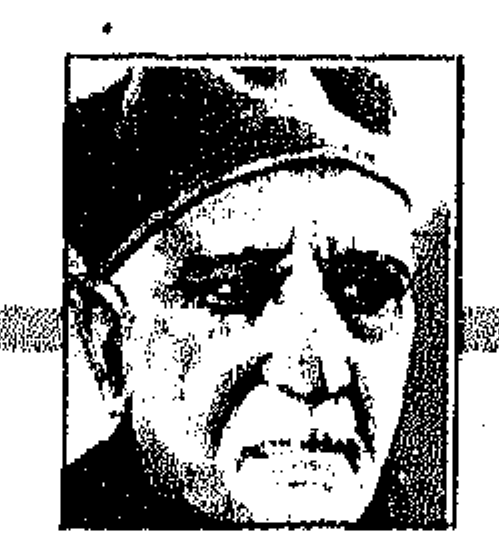
إلا أننا نترقب كثيراً ونغلو في الثقة بفهم القوم لحقائق هذا الدين إذا ترقبنا من منصفيهم أن يصبحوا مسلمين متحرجين في تنزيه العقائد الإسلامية عن المظان التي قد تخفى على أناس من المقلدين بين أتباع هذا الدين، فلا يزال هذا المؤلف وغيره ممن يحسنون القول في الإسلام إجمالاً يتوهمون أن النعيم الموعود لا يعدو أن يكون ألواناً من لذات الحس ومتعة من متع الطعام والشراب، ثم يتوهمون أن الإسلام قد انفرد بتصوير النعيم على هذه الصورة بين الأديان الكتابية، ويتناسون أوصاف الكتب الأخرى من القرون الأولى إلى ما بعد القرون الوسطى لكل متاع موعود في عالم الجزاء والثواب، وقد يأبون أن يفهموا أن الإجماع منعقد بين العارفين بالكتاب على اختلاف الصفات والموصوفات بين الدنيا والآخرة، ولكنهم سواء وقفوا بالفهم دون معنى التنزيه الواجب، لأنهم يجهلون أو لأنهم يستريحون إلى المعنى القريب المبذول - قد بلغوا طاقتهم من إحسان النية وإحسان المقال.

الإسلام فى إفريقيا الشرقية (*)

ألف هذا الكتيب الدكتور ليندون هاريس علم من أعلام التبشير فى القارة الإفريقية، وقصره على البحث فى أحوال الإسلام والمسلمين بين أهل زنجبار وبمبا وتنجنيقا وما جاورها من بلاد السواحل الإفريقية، وجمع فيه معلومات متفرقة يتحرى فى بعضها الدقة العلمية والمطابقة للمشاهدات الواقعة لأنه يريد بها اطلاع العاملين فى التبشير على حقيقة الموقف للاستعداد لها بما يصلح لها من العدة الكافية والوسيلة المجدية، ولا يملك في بعضها الآخر أن يتجرد من آرائه وأهوائه كلما تعرض لشرح العقائد الإسلامية وتفسير الحوادث التاريخية ومآثر المسلمين فى العالم كله وفى تلك البلاد على التخصيص، فهو فيما عرض له من هذه الأمور مصطبغ بصبغته التبشيرية على الرغم منه أو باختياره ورضاه، مطاوعة لغايته وهواه.

بدأ معلوماته باقتباس كلمة الحكيم الإنجليزى صمويل جونسون التى يقول فيها: إن المسيحية والإسلام فى عالم العقيدة

(*) نشر هذا المقال بمجلة الأزهر عام ١٣٨٠ هـ.



هما الديانتان الجديرتان بالعناية، وكل ما عداهما فهو بربرية..

وعقب على هذه الكلمة فقال: إن وصف البربرية شديد بالنسبة إلى الديانات الأخرى التى كشفت حقائقها بعد عصر الدكتور جونسون، ولكنه استرسل فى وصفه الإسلام ليقول: إنه الديانة الوحيدة التى تعد على الدوام «تحدياً» أو مناجزة لجهود التبشير والمبشرين، ثم مضى يسرد المعلومات التى تطابق الواقع أحياناً وتناقضه أحياناً ونجتزىء منها بالمهم من وجهة النظر الإسلامية فى السطور التالية:

يقول الدكتور ليندون هاريس ـ بعد ذلك التمهيد ـ بصريح العبارة: إن جهود التبشير بين المسلمين فى إفريقية الشرقية عقيمة لا تؤذن بالنجاح القريب ولا بالنجاح المضمون، وإن نتيجتها كلها إلى اليوم عدم (Nil) ولا يرجى أن تتغير هذه الحالة بغير جهود متواصلة يطول عليها المطال.

ويخرج من هذ النتيجة بتقرير الواقع الممكن من أعمال التبشير، وهو توجيه الجهود إلى أبناء البلاد الإفريقيين الوثنيين، فإن الجهود فى هذه الوجهة لا تذهب سدى ولا يزال الأمل فى نجاحها مفتح الأبواب لمن يحسنون الوصول إليها، وإن كانت هذه الأبواب مفتحة للمبشرين وللعاملين



على نشر الدعوة الدينية من المسلمين، ومفتحة كذلك للمسلمين الذين يستميلون الوطنيين إلى ديانتهم بغير دعوة منتظمة.

ويذكر الدكتور ليندون عقبات الدعوتين بين القبائل الوطنية التي تحكم على الغرباء بالسمعة العامة بين سابقة ولاحقة.

فالمسلمون يشيع عنهم - أو يشاع عنهم - أنهم هم وحدهم المسئولون عن أعمال النخاسة في العصور الماضية، ولا يذكر المؤلف شيئاً عن النخاسة في إفريقية الغربية، وهي تدل بآثارها على الفارق بين النخاسة المنسوبة إليه تجار العرب وغيرهم من الآسيويين، وبين النخاسة الأوروبية الأمريكية التي نقلت السود إلى العالم الجديد، وعدتهم الآن هناك لا تقل عن ستة عشر مليونا من الرجال والنساء، وهم أضعاف الأرقاء السود الذين نقلوا من بلادهم إلى الأقطار الآسيوية في عدة قرون.

أما التبشير المسيحي فالدكتور ليندون يقول عن السمعة العامة التي تعوقه: إن الوطنيين يقرنون بين الرجل الأبيض والمستعمر وبين ديانته وديانة المبشرين، وإن جماعات التبشير تحسن صنعاً إذا اتخذت في السياسة مسلكاً يعزل فكرة التبشير عن فكرة الاستعمار في عقول أبناء البلاد الأصلاء.



ويروى المؤلف من أعـمـال الدعـوتين أن القـرآن الكريم ترجم إلى اللغة السـواحلية ترجمتين : أحدهمـا بقلم كـانون ديل المبـشـر (سنة ١٩٢٣) لم يقبـل عليـهـا أحد من الوثنيين وكـاد أن ينفـرد المسلمـون باقتنائهـا ، وإن كـانوا لا يعـولون عليها .

والترجمة الأخرى نقلهـا «الأحمـديون» الهنود وحشوها بالبحـوث الفـقـهـيـة (اللاهوتيـة) التى لا يطيـقـهـا أبناء البـلاد الأصـلاء ، ويرتضيـهـا المسلمـون أهل السنة من قـراء الكـتاب باللغة العربية .

ويتطرف المؤلف فى هذا السيـاق إلى الشيع الإسـلامـيـة فيـروى كلمـة للشاعر محمد إقبـال ينعى فيـها على المسلمين فى بلاده أنهم أصبحوا كالبراهمة فى تعدد الشيع والنزعات .

ومن المشاهدات التى يرددها المؤلـف أن أثر المسلمين فى بلاد العرب الجنوبيـة أظهـر من أثر إخوانهم الذين ينتمـون إلى سـائر الأقطار الآسيـوية ، ويستـدل على ذلك بعدد الإفـريقـيين الذين يقبلـون على مسـاجـد هؤلاء وهؤلاء ، وبالصلات الاجتمـاعـيـة التى تنعقد بين كل من الفريقـين وبين الإفريقـيين السـواحليين وغـيـر السـواحليين الذين يدينـون بـالإسـلام ، فإن أبناء البـلاد



الأصلاء يأنسون إلى الجالية العربية عندهم منذ عهد بعيد.

ولا يحاول المؤلف أن يطمس الفارق بين أثر العرب وأثر الأوروبيين الأسبقين إلى استعمار إفريقية الشرقية، فإنه يقرر أن البرتغاليين قضوا فيها نحو مائتى سنة لم يتركوا بعدها أثراً من آثار الحضارة النافعة، ولم يعقبوا بعدهم غير ذكرى الخراب الذى حل على أيديهم بالمعاهد والمعابد الإسلامية، ولم يزالوا حيثما نزلوا يخربون وينهبون حتى استغاث السواحليون بالإمام سعيد صاحب عمان، وهو والد سعيد الأول سلطان تولى من هذه الأسرة حكم زنجبار.

أما العرب الذين انتقلوا إلى السواحل فإنهم نقلوا إليها الكتابة والعمارة وأدوات الحضارة وطبعوها بطابعهم فى كثير من أحوال المعيشة. ويتساءل المؤلف عن المستقبل فيقول: ماذا عند العرب يعطونه الإفريقيين بعد اليوم وماذا عند الأوروبيين؟

ثم يجيب قائلاً: إن الأوروبيين يعطون المدارس والمستشفيات والمرافق العصرية ويرجحون على العرب بمدارسهم التى تعد الطالب الوطنى لأعمال الحياة العامة والخاصة فى العصر الحديث، ولكن المدارس العربية ينحصر



عملها فى تحفيظ القرآن وتعليم الهجاء والمطالعة الأولية، ولا تصحب هذه المدارس - أو المكاتب - أعمال أخرى من قبيل أعمال الخدمة الاجتماعية التى ينشئها الغربيون، إلا قليلاً من المعونة يقوم بها أهل الخير هنا وهناك من قبيل الصدقة والإحسان.

يقول: «إن الإقبال على التعليم الحديث وفقا للبرامج الأوروبية يقبل عليه المسيحيون والمسلمون على السواء، وقد كان المسيحيون يدخلون أبناءهم مدارس المبشرين ويؤثر المسلمون لأسباب دينية أن يعلموا أبناءهم فى المدارس الحكومية، ولكن هذه المدارس الحكومية مبعثرة متباعدة بين أطراف البلاد الداخلية، وأكثر التعليم على البرنامج الغربى تتولاه مدارس التبشير.

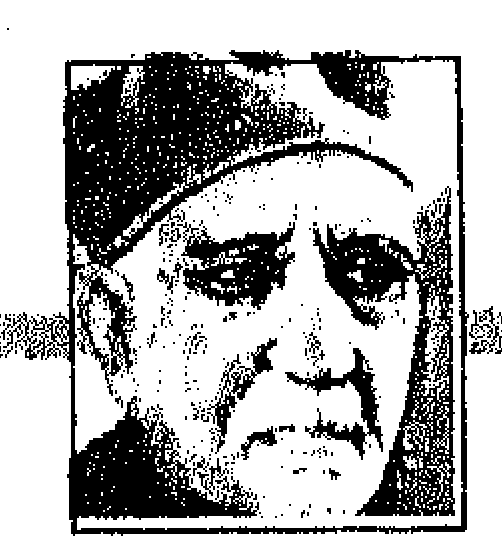
ثم يقول: «إلا أن مدارس السواحل الإسلامية التى تشرف عليها الحكومة تقارن بأفضل المدارس التى يديرها المبشرون، ويقبل عليها أبناء الهنود والعرب، مع اتجاه الرغبة أخيراً إلى نشر التعليم العصرى وقيام الطائفة الإسماعيلية على الأكثر ببناء المدارس لنشر هذا التعليم، وقد تم بناء نحو خمسين مدرسة على البرنامج الحديث منها ثلاث مدارس ثانوية نشأت

كلها بعد الحرب العالمية الثانية».

ويوازن المؤلف بين الوسائل فيرى أن وسائل الإسلام أقل من وسائل المبشرين، ولكنه قدم لذلك بتردده فى الحكم على المستقبل فقال: «إنه ليس فى الوسع أن ينبىء أحد بمصير الأمور فى بلاد تتوالى فيها المفاجآت على غير انتظار، فلا يبعد أن يميل رقاص الساعة كرة أخرى إلى جانب الإسلام: لأنه عامل من العوامل الحاضرة أبداً فى هذه البلاد».

وعند المؤلف أن المؤثرات المعنوية تتقابل فى نفوس المسلمين فتعطيهم من جانب عوضاً مما تسلبهم من الجانب الآخر، ولا يلبث المسلم أن يستكين شعوراً منه بالفارق بينه وبين الغربيين فى الزمن الحديث حتى تثوب إليه العزة فخراً بماضى الإسلام العريق، وأن هذا الفخر ـ كما يقول المؤلف ـ لعامل مهم جدا فى هذا الموقع من بلاد العالم، إذ ليس للإفريقى تاريخ يذكره ويفخر به قبل أجيال معدودات.

ويخلص المؤلف من ذكريات الماضى ونبوءات المستقبل إلى خطة يرى أنها كفيلة بإتمام جهود المبشرين الأوروبيين التى يعجزون عنها فى موقف المقابلة بين التراث الإسلامى العريق والتراث الإفريقى الحديث، فإن المبشر الأوروبى قليل الجدوى



فى هذا المجال، ولكن جدواه القريبة إنما تنتظر من المبشرين أبناء البلاد الأصلاء الذين تحولوا عن عقائدهم الأولى على أيدى بعثات التبشير منذ سنين، فإنهم أحرى أن يقابلوا الدعوة الإسلامية بشعورهم الوطنى الدينى، فيؤدون هنا عملاً لا ينتظر من المبشرين البيض.

قال: «إن ابن القبيلة الإفريقى يلمح نظافة المسلم شخصاً وبِزّة كما يلمح المكانة التى يكسبها بأدب (الحشمة) الاجتماعية وتتعلق مكانة الرجل الإفريقى بهذه الحشمة المصطلح عليها، وهى مكانة ذات شأن حيث يعيش الناس على مرأى بعضهم من بعض فى حيزهم المحدود، فلا جرم أن يعتز المسلم بهذه الحشمة فوق اعتزازه بكل شىء، لأنها مقياس خلقه وحياته، وبها يستدعى المناظرة ومحاولة التشبه به من أبناء البلاد الأصلاء».

ثم ختم الرسالة ملحاً على التنبيه إلى «المناجزة المتحدية» من قبل الإسلام، مهيباً بأنصار التبشير الغربيين أن يضاعفوا العون الذى لا غنى للتبشير عنه لبلوغ الغاية منه.. «فليس فى وسع البعوث التبشيرية أن تعهد للمبشرين من أبناء إفريقية الأصلاء دعوة إخوانهم المسلمين، ولكنها بغير هؤلاء لا يرجى لها نجاح».

كلام عن الإسلام والعرب في كتابين حديثين (*)

كتابان من المطبوعات الحديثة قرأت فيهما كلاما عن الإسلام والعرب وعن تقدير الحضارة العربية.

فتحت أحدهما فوجدت فى صدره فصلا مطولا بعنوان: «إسلام القرن العشرين» فخطر لى أن المؤلف يتكلم عن تطور الإسلام فى هذا القرن ويشرح آراء المجددين المصلحين من أئمته أو عادات المسلمين المعاصرين مع المقابلة بينها وبين عادات المسلمين فى القرون التى سبقت القرن العشرين.

ولكننى لم أقرأ من الفصل بضعة أسطر حتى ظهر لى أن المؤلف إنما يتكلم عن الشيوعية الماركسية ويحذر العالم الغربى من أخطارها لأنها - كما يقول - غزوة جديدة تهدده فى كيانه كما هدده الإسلام فى القرن السابع للميلاد..!

وإنه لتضمين من المؤلف أوضح وأبلغ من التصريح، لأنه يعلن رأيه ورأى قرائه المقصودين فى موقفهم من الإسلام،

(*) نشر هذا المقال بمجلة الأزهر عام ١٣٨٠هـ.



ويبين لنا أن هناك قوما من بنى جلدته يحسون أن اسم الإسلام نذير بالخطر يكفى أن يذكر لهم ليدركوا أنهم مهددون بما يوقظ النائم وينبه الغافل ولا يحتاج بعده إلى نذير.

وفرغت من الفصل فلم أجد فيه وجها من وجوه المشابهة غير أن الإسلام دعوة والشيوعية دعوة، أو هى كما سماها «دين دنيوى» يقوم على عقيدة «إيمانية» تجرى مع الشعور ولا تجرى مع المنطق والمعرفة البرهانية وهذا كل ما هنالك من مشابهة بين النذيرين!

وقد زعم المؤلف أن خطة ستالين فى «تشييع» القارة الآسيوية أو إكراهها على قبول الشيوعية ليست إلا تكرارا لخطط القادة الآسيويين أمثال محمود الغزنوى وطغرل بك وألب أرسلان، وأن هذه الخطط جميعا تعتمد على سلاح الدولة وسلاح العقيدة وتتخذ العقيدة أحيانا وسيلة لقلب الدولة كما تتخذ الدولة أحيانا أخرى وسيلة لقلب العقيدة.

لكن ما هو وجه الشبه بين دعوة تخاطب الناس من كل طبقة وبين دعوة تلغى الإنسانية ولا تعرف لها تاريخا أو مستقبلا غير تاريخ طبقة واحدة؟



وما هو وجه الشبه بين دعوة تصحح المجتمع أو تعالج أدواءه وبين دعوة تهدم المجتمع ولا تبقى منه بقية تربط بين حاضره وماضيه؟

وما هو وجه الشبه بين دعوة نحصى عدد الضحايا من أعدائها ومقاوميها فلا يزيد على بضعة ألوف فى مائة سنة، وبين دعوة نحصى عدد ضحاياها فى موطنها وحده فيزيد على عشرين مليونا فى بضع سنوات؟

وما هو وجه الشبه بين الصديق والفاروق، وبين لينين وستالين؟

إن كل شيء فى الإسلام والشيوعية يختلف أشد الاختلاف غير اسم الدعوة أو اسم العقيدة، إن صح وصف المؤلف للشيوعية بأنها عقيدة دنيوية.

ولكن الشبه المهم الذى جمعه المؤلف تحت عنوان فصله إنما هو فى «النذير» الصريح باسم الدعوتين، وكفى به عنوانا يغنى عند قرائه المقصودين، وعندنا نحن، عن صفحات ومجلدات!

هذا الكتاب اسمه: «الشيوعية من وجهة العلوم الاجتماعية والنفسية، واسم مؤلفه الأمريكى جول



مونيروت، ويقول مقرظوه: إنه ناقد ثاقب النظر يرمى بنظره إلى بعيد!

***

أما الكتاب الآخر فاسمه «العرب» واسم مؤلفه «هارى أليس» وهو كاتب صحفى قضى فى الشرق الأوسط حقبة غير قصيرة مشتغلا بمراقبة الأحوال ومراسلة الصحف العلمية، وكتابه أشبه بكتب الدراسة فيما يعرض له من التاريخ القديم، وأشبه بمقالات السياسة فيما انتهى إليه فى ختام فصله الأخير.

يبدأ المؤلف تاريخه الموجز من العصور السابقة للأديان الكتابية، ويعتبر تاريخ العرب أصلا لتواريخ الحضارات التى عمرت طويلا بين النهرين وبين البحرين، أى البحر الأحمر وبحر الروم.

ثم يوجز الكلام عن دعوة الإسلام فيقول، بعد خليط من الحقائق والأوهام: إن سنة ٧٣٢م وافقت ذكرى وفاة النبى محمد «صلوات الله عليه» فبلغت بدعوته أقصى المغرب وكادت أن تصل إلى أقصى المشرق، ولم يكن السيف وحده قوام الدعوة بل كان كثير من أبناء البلدان المفتوحة يقبلون



على الإسلام لتفضيلهم إياه على عقائدهم، أو لأن الدخول في الإسلام يرفع عنهم الضرائب التى تجبى من غير المسلمين، ولكن لا يفهم من ذلك أن المسلمين الذين دخل آباؤهم فى الإسلام فرارا من الضريبة كانت عقيدتهم الإسلامية هينة عليهم، بل كان هؤلاء المسلمون يذودون عن دينهم مستميتين مستشهدين كلما هوجمت ديارهم بعد سقوط «الإمبراطورية الإسلامية» حوالى القرن الثالث عشر للميلاد.

قال: «وإن العرب الذين كانوا قبل الإسلام بدوا جفاة جلبوا إلى دولتهم الواسعة هديتين جليلتين: إحداهما الديانة التى بشر بها محمد «عليه السلام».. والأخرى اللغة العربية.

فأصبح اللسان العربى واسطة المعاملة كما أصبح واسطة التعليم والتثقيف، فزاد عدد الكتب التى كانت تظهر باللغة العربية بين القرن التاسع والقرن الثانى عشر للميلاد على جملة الكتب التى ظهرت يومئذ بجميع اللغات الأخرى.

ولم يخالف المؤلف ديدن زملائه فى خصلتين ملازمتين لأكثر الكاتبين عن الإسلام والعرب من الأوروبيين، فإنه ليستريح إلى الإقلال من عدد المتكلمين باللغة العربية فيحصيهم بنحو خمسين مليونا وهو يستطيع أن يعلم بغير



حاجة إلى البحث الطويل أن خمسين مليونا يتكلمون العربية ويعيشون فى أفريقية الشمالية وحدها دون سائر الأمم الإفريقية الأخرى وراء مراكش والجزائر وتونس وليبيا ووادى النيل، ولا يقل المتكلمون باللغة العربية إلى الغرب من القارة الآسيوية عن ثلاثين مليونا بين جزيرة العرب ووادى النهرين وسائر أقطار الهلال الخصيب، وقد يبلغ العارفون بالعربية من غير العرب عدة ملايين.

والخصلة الأخرى التى ينساق إليها المؤرخ الغربى عن سوء فهم منه للظواهر الفنية أحيانا هى التطفيف من نصيب الذوق العربى الخالص من نهضة الفنون والثقافة فى الدول الإسلامية أو «الإمبراطورية» الإسلامية كما يسميها.

فقد يكون المهندسون أجانب عن السلالة العربية الخالصة ولكن الذوق العربى بلا جدال هو الذوق الذى غلب على هندسة المعمار فى كل قطر من أقطار المشرق والمغرب وما من أحد ينظر إلى العمدان والأقواس التى تحمل القباب ثم يشك فى قيامها جميعا على أساس من إلهام «النخلة» بقوامها المديد النحيل وقبتها المعرشة وأقواسها المتناسقة على جهاتها الأربع، وليس التقابل بين الأشكال الهندسية على النسق

المعـروف عنـد الإفـرنج بـاسم «الأرابيـسـك» إلا تكرارا فى فن البـنـاء لـلـتـقـابـل بـيـن الـقـوافـى والأعـاريض والشـطـور فى فن القريض.

ولا نكران لنقـد الناقدين من جهابذة الفن الذين يأخذون على فن «المعمار» العربى خلوه من صور الكائنات الحية ومن صور النبات فى أكثر الأحايين، ولكن هؤلاء النقاد ينسون أن مذهب المعـمـار العـربى قـابل للدفـاع عنه من الجانب الفنى الخالص وإن ظنوا أن الدفاع عن هذا المذهب مقصور على الجوانب الدينية، فقد رأى الفيلسوف الكبير «عمانويل كانت» أن الفن الخالص يتمثل فى المعمار العربى وحده، وقلما يتمثل على هذا النحو فى فنون المعمار الأخرى، لأن جماله مستمد من جمال الأشكال الهندسية غير مستعار من الصور والأشباه التى يقاس جمالها بغير مقاييس الهندسة ومقاييس البناء، ومن الإنصاف للذوق العربى أن نذكر أن أشكال الهندسة أقرب إلى قوام الجدار والسقف والعمود الحجرى من الصور الحيوانية أو النباتية، فإذا حسنت التحلية بصور الأحياء أو صور النبات فأحرى أن يوكل ذلك إلى نقش الرسوم التى تعلق بألواحها على الجدران، كأنها بعض الأثاث





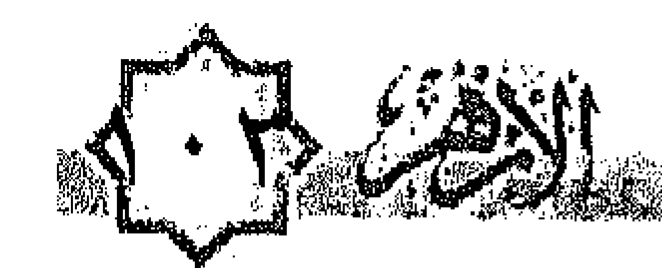
الجميل بين سائر المقتنيات الفنية التى تحتويها الحجرات والبيوت.

ومادام الأمر لا يرجع إلى فقدان التعاطف بين الإنسان وسائر الخلائق الحية فلا معابة فيه على الذوق ولا على الشعور، ولكنه تقسيم لمواضع الجمال الفنى حيث ينبغى أن توضع من جدران البيوت أو مقتنيات البيوت.

أما أن تجريد المعمار العربى من الرسوم الحية لم يكن يرجع إلى فقدان التعاطف بين العربى وسائر الخلائق الحية، فهو حقيقة لا تخفى على من يروى القليل من الشعر العربى فضلا عن الكثير فإن الشاعر الذى لا ينسى الناقة ولا الفرس ولا الربيع والمرعى قبل عصر الحضارة خليق أن يحس الحياة والأحياء تحت قبة السماء، ولا ينتظر أن يخلق إحساسه بها تحت قباب الهياكل والقصور.

***

وينتقل المؤلف من حديثه عن عصر الحضارة إلى حديثه عن قضايا العصر الحاضر، فلا يفوته أيضاً أن يدلى بدلوه فى تلك السخافة التى تعاهد عليها زملاؤه الصحفيون، أو المؤرخون العصريون من أبناء الغرب كلما ذكروا قضية فلسطين..



فهى عندهم قضية كسبتها عصابات إسرائيل من الأمم العربية في ميدان القتال وانتصرت فيها بجيشها وسلاحها على دول العرب مجتمعات، ولم يكن أحد - بعيدا عن الشرق الأوسط - يجهل أن إسرائيل كانت تحارب بسلاح الدول الغربية ومالها، وكانت تلقى التشجيع من تلك الدول فتزحف على الأرض المحرمة ويصبح احتلالها تلك الأرض «أمرا واقعا» و«حقا مكتسبا» على حين يضطر العرب إلى الجلاء عن أماكنهم بأمر السادة المسلطين على حكوماتهم وجيوشهم، ثم يقتل وسطاء الهيئات الدولية الذين يكفون إسرائيل عن العدوان أو يترددون فى استجابتها إلى دعواها فلا ينالها من جراء قتلهم جزاء ولا يحول بينها وبين المزيد من معونة السلاح والمال.

إن البعيدين عن الشرق الأوسط يعلمون ذلك فلا ينساقون إلى القول بانتصار إسرائيل عن حسن نية، ولا يقررون هذه السخافة إلا وهم يتعمدون المغالطة ويسترون الجريمة المشتركة بين حكوماتهم وعصابات الصهيونية العالمية، فإذا بدرت تلك السخافة من مقيم فى الشرق الأوسط مطلع على الأخبار من مصادرها فهو فى الواقع يبتدع تلك السخافة



ويعمل على ترويجها ولا يتورط فيها مضطرا إليها بعد اختراعها وترويجها.

وبيت القصيد من هذا كله ينجلى عند ختام الكتاب من الأسطر القليلة التى عقب بها المؤلف على كلامه عن النفط فى البلاد العربية وعن القوة التى تستفيدها هذه البلاد من تزاحم الأمم على آبارها وإدراكهم لخطر مراكزها فى معترك السياسة العالمية، وهذه هى أسطر الختام منقولة بحروفها:

«.... كلما ازدادت ثقة العرب بقوتهم وجب عليهم أن يثقوا بشعوب الغرب التى تعودوا أن يسيئوا بها الظنون منذ أيام الوصاية والانتداب، وعلى الغربيين - من جانبهم - أن يذكروا أنه قبل قرون عديدة سبقت وصول الرجل الأبيض إلى أمريكا كان العرب سادة الدنيا وزعماء حضارتها».

الشرق الأدنى الإسلامى(*)

أشرفت على تنسيق هذا الكتاب وتوزيع موضوعاته جامعة «تورنتو» بكندا، وأصدرته ملحقاً لمجلتها الربعية، أى التى تصدر أربع مرات فى السنة، وعمدت فى كتابته إلى ثمانية من علماء الإسلاميات يحاضرون طلبة الجامعات فى مسائل الشرق الإسلامية، ومنهم: سير هاملتون جب المستشرق المعروف وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، والأستاذ فيضى الذى كان سفيراً للهند بالقاهرة ووكيلاً لجامعة جامو وكشمير، والأستاذ مانجو رئيس القسم التركى بدار الإذاعة البريطانية، والأستاذ بكنجهام عميد الدراسات الإسلامية بجامعة مانشستر، والأستاذ نيازى بركيز عضو معهد الدراسات الإسلامية بجامعة ماكجيل، والأستاذ سافورى الذى يحاضر طلاب جامعة لندن باللغة الفارسية فى الشئون الأفريقية والشرقية والأستاذ ويكنز مؤلف كتاب «ابن سينا العالم والفيلسوف» والأستاذ كاشا بجامعة أدنبرة.

(*) نشر هذا المقال بمجلة الأزهر عام ١٣٨٠ هـ.

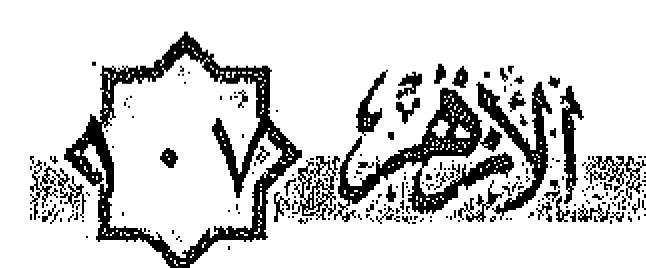




ومن بحوث هذه المجموعة بحث تكلم فيه الدكتور فيضى عن جوهر التعاليم الإسلامية كما بسطها الشاعر الفيلسوف محمد إقبال والوزير العالم أبو الكلام آزاد، وخلاصة هذا البحث أن رسالة محمد إقبال تقوم على إحياء سنن الإسلام «الفعال» واجتناب الصوفية «السلبية» التى شاعت بين المسلمين فى عصور التخلف والجمود، وأن حكمة الإسلام جميعاً تتلخص فى الفاتحة كما فسرها أبوالكلام آزاد لأنها خلاصة الإيمان بالربوبية والهداية والأدب القويم والتبعة التى يناط بها الثواب والعقاب فى يوم الدين.

وبحث آخر من بحوث المجموعة يعرض للدعوة الغربية فى الأمة التركية ويشرح الفرق بين المتطرفين فى حركة «الاستغراب» وبين القائلين باقتباس الحضارة الغربية مع الترفق والاعتدال، ويكاد الباحث أن يرد هذا الفرق إلى مدلول كلمة «ملة» عند الحزبين فإنها تشمل معنى الدين عند المتحفظين فى اقتباس الحضارة الغربية ولا تفيد غير معنى الوطن أو الأمة عند أنصار «التغرب» المطلق من قيود التحفظ والاعتدال.

ويلى ذلك بحثان عن الأدب التركى الحديث، ولا سيما



أدب القصة، وعن الأدب الفارسى الحديث، ولا سيما أدب الشعر، ويقترن به بحث آخر عن البلاد الفارسية عامة منذ إعلان الدستور وقيام الحكومة النيابية.

وقد خصصت مجلة الجامعة بحثاً من هذه البحوث للأدب العربى الحديث، انتهى كاتبه إلى المسائل الدينية التى توفر عليها بعض الأدباء المحدثين، فكان من رأيه أنها تدل على تجدد الثقة بالنفس بين كتاب العرب المسلمين، وليست لها صبغة الشعائر والعبادات.

أما البحث الشامل للوجهة العامة بين أطراف الشرق العربى الإسلامى من جميع نواحيه فهو الموضوع الذى قدمت به المجموعة وعهد به إلى السير هاملتون جب فوفاه حقه من الدراسة العلمية مع التزام الحيدة الواجبة فى المسائل السياسية، وتنجلى هذه الحيدة من تعليق الكاتب على آراء الساسة الغربيين وجلة المفكرين الاجتماعيين التى يصورون بها «حالة» الشرق الإسلامى بعد استقلال شعوبه عن سيطرة الدول الغربية ثم يبنون عليها تقديرهم لمصير هذا الشرق كما يتصورونه أو يتمثلونه.

فالسير هاملتون جب يرى أن الساسة الغربيين يعتبرون هذه الحالة فراغ ينتظر الامتلاء VACUM كأنهم يحسبون أن



خروج دولة من أحد الأقطار الشرقية يتبعه دخول دولة أخرى أو يظل ذلك القطر «فارغاً» لا يستطيع أبناؤه أن يملئوه بنظام يعوضه من النظام الأوروبى المفقود.

ومما يدعو الساسة الغربيين إلى هذا التفكير شيوع الاعتقاد بين مراقبى الأحوال فى البلاد الشرقية بانقضاء العهد الذى كان الإسلام فيه «قوة فعالة» فى تكوين النظم الاجتماعية والسياسية باعتباره «قسطاساً» مرعياً من الشعائر المعمول بها والفرائض المتبعة والعادات السارية فى شئون المعيشة اليومية.

يقول السير هاملتون: إن هذا التفكير لا يطابق الواقع، لأن المسلم هو المسلم فى رأى نفسه وليس هو المسلم على صبغة يصبغه بها الأجانب عنه حسبما يتصورونه من شعائره وفرائضه وعاداته، ولا يصح أن نفهم أن المسلمين ابتعدوا عن حظيرة الإسلام وهم أنفسهم يشعرون بأنهم مسلمون يغارون على العقيدة الإسلامية ويريدون البقاء فى حظيرة هذه العقيدة.

يقول: وليس بين البلاد الإسلامية بلد أعلن عن رغبته الصريحة فى الاستغراب أو «التغرب» باستثناء البلاد التركية، ولكن البلاد التركية أيضاً لا تعلن هذه الرغبة اليوم بتلك الثقة التى أعربت عنها منذ عشرين سنة، وفيما عدا

هذا الاستثناء الضعيف يغلب على أبناء العصر من المسلمين الذين ينقمون على مساوئ العصر الحاضر أن يحملوا الغرب أوزار هذه المساوئ ولا يعلقوا آمالهم فى الإصلاح بمشابهة الغرب والاقتداء بأممه فى جملة أحوالها .

وقد تابع الكاتب مراحل التطور منذ مائة وخمسين سنة ، فقال : إن الأمم الإسلامية - منذ ثلاثة أجيال - مرت بمرحلتين قبل المرحلة الأخيرة ، وهى المرحلة الحاضرة .

فالصدمة الأولى زعزعت دعائم التقاليد الغابرة فانقضت المرحلة الأولى بانقضائها وخلفتها مرحلة النظم الغربية المستعارة ، إلى أن ظهر فشلها فانقضت هى أيضاً بانقضاء عهد الأموال الأجنبية .

واليوم يعود الشرق الإسلامى إلى موارده ويقيم مجتمعاته على أسس الاقتصاد الحكومية أو على الأسس التى تنجح المشروعات الشعبية فى إقامتها وتدعيمها ، ولا غنى عن خبرة الصناعة والإدارة ومعونة المثقفين والمستنيرين لتوطيد المشروعات الشعبية .

فالمجتمع الجديد مجتمع غير المجتمع الذى استقر زمنا فى أيدى حكام القرن الثامن عشر ، وغير المجتمع الذى استقر زمنا بمعونة «رأس المال» من الخارج وحاول القائمون به أن يؤسسوه





على قواعد النظم الأوروبية الحديثة، ويتميز هذا المجتمع الجديد بظهور قوة اجتماعية غير قوة السادة حكام القرن الثامن عشر وغير قوة خلفائهم الذين حاولوا أن ينقلوا إلى الشرق نظم الغرب وأنماطه الحكومية.

هذه القوة الجديدة لا تنزع إلى التخلص من ديانتها كما تفهمها وتشعر بها على الرغم من ظنون الأجانب الذين يقيسون غيرة المسلم بمقياس الشعائر و«الطقوس» المرعية، فإذا استدعى العصر الحاضر تغييراً فى مبادئ المجتمع فإنما هو التغيير الضرورى الذى تفرضه طبيعة العصر ويؤدى إليه اشتراك خبراء الصناعة والاقتصاد، والتعاون بين هؤلاء الخبراء وبين المستنيرين الكفاة لتوجيه الأعمال والاضطلاع بمطالب الحياة الحديثة، ويختتم السير هاملتون جب بحثه الموجز بهذه العبارة التى نترجمها بحروفها:

قال: إننى لا أرى أية علامة فى الشرق الأوسط على احتمال قريب لقيام دولة شيوعية.. أو قيام دولة ديمقراطية من طراز أية دولة غربية، ولابد لكل هيئة من هيئات الحكم فى العالم العربى يراد لها الاستقرار المعقول أن تجمع بين إرضاء الشعور العربى والشعور الإسلامى فى وقت واحد.

الفهرس

AL AZHAR

MAGAZINE

المتن ٧٠ جم
الغلاف ١٥٠ جم كوشيه